أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

سيكولوجية العاطفة

يوسف ميخائيل أسعد

المقدمة

إن تناولنا لهذا الموضوع قد صدر عن رغبة فى إماطة اللثام عما يعتمل فى قوام المرء من عواطف . فالرغبة فى الاستقصاء والكشف عن الغوامض التى تكتنف العواطف الإنسانية هى التى حدَت بنا إلى التفكير فى تقديم هذا الكتاب . وكان لابد لنا من البداية أن نتناول معنى العاطفة من زوايا متباينة ، ثم لموضوعات العاطفة ومثيراتها ، ولما يعتورها من حالات وعلاقتها بالعقل ، وما تضطلع به من وظائف ، ثم لعلاقتها بالمشاركة الوجدانية ، وللدور الذى يضطلع به اللاشعور بإزائها . وعلاقتها أخيرًا بالصحة النفسية والتوافق الاجتماعى والقيم .

أما عن المنهج الذى اتبعناه ونتبعه عادة فى تناولنا للموضوعات النفسية ، فهو المنهج الخِبْرى التأملى ، والواقع أن هذا المنهج مكمِّل للمنهج البحثى الذى ينهج وَفْقه الباحثون ، فيقفون على ما كتب فى الموضوع الذى يتناولونه بالدراسة ، ثم يخرجون من تأملاتهم بخلاصات بحثية تصطبغ بصبغتهم الذاتية على نحو أو آخر . أما المنهج الخِبْرى التأملى فإنه يعتمد على الفكر الشخصى للكاتب ، وهو الفكر الذى يُعتبر بمثابة مُرَكَّب خِبْرى يتأتى له نتيجة قراءاته وتأملاته . وهذا المركب الخِبْرى شبيه بالعصارات التى يستخلصها الجسم نتيجة تناوله للطعام والشراب . فتلك العصارات ليست طعامًا وشرابًا برغم أنها صادرة عنهما ومستخلصة منهما ، ولكنها استحالت إلى شىء جديد مباين للأصول التى استمدت منها .

Looloo
www.dvd4arab.com

من هنا فإن الكتابات من هذا القبيل تكون نسيجًا وَحْدها (Sui Generis) ، أى أنها كتابات غير مسبوقة ، وتعتبر إضافات حقيقية للموضوع الذى يتم بحثه . بيد أن للموضوعات التى تصلح لتطبيق هذا المنهج مواصفات خاصة . فالموضوعات التاريخية مثلا لها منهجها الخاص بها ، ولا يصلح هذا المنهج فى تناولها .

وعلى أية حال فإن الكتاب موضوع بين يدى القارئ ، وهو صاحب الحكم الأخير على المضمون والمنهج وعلى غير ذلك من جوانب تتعلق به ، وسواء كان حكمه عليه لصالحه أم لغير صالحه ، فإن مجرد تناوله له ، واطلاعه عليه ، سوف يحسب له ، لأن ذلك يكون دليلا على أنه جذب انتباهه فعكف على تصفحه . ولكن ما نود أن نقرره قبل أن ننتهى من هذه المقدمة ، هو أن الأعمال الإبداعية تحمل قيمة فى ذاتها ، بغض النظر عن تقدير المتلقين لها بالرضى أو بالسخط .

يولية ١٩٩٦ يوسف ميخائيل أسعد

★ ★ ★

الفصل الأول
معنى العاطفة

المعنى الانبثاقى :

من الحقائق التى يجب ألا تعزب عن البال ، أن القوام البيولوجى لدى الإنسان ، بل ولدى جميع الكائنات الحية ، هو الأساس والركيزة الرئيسية التى تنبثق منها جميع الأنشطة التى تتبدى فى السلوك والعلاقات . فبالنسبة للإنسان ، نجد أن النشاط الانفعالى الوجدانى ، ينبثق من القوام البيولوجى ، وأن النشاط العقلى ينبثق من دخيلة النشاط الانفعالى الوجدانى .

وما يهمنا فى هذا المقام هو إلقاء الضوء على العاطفة ، وكيف أنها تنبثق من القوام الجسمى للمرء ، فنجد أن ذلك الانبثاق يمكن أن يتحدد على النحو التالى :

أولاً ـ الاشتراط (Conditioning) قام بافلوف (١٨٤٩ ـ ١٩٣٦) العالم الروسى بإجراء تجاربه على الكلاب ، وتوصّل إلى أن الكلب الذى يسيل لعابه لدى مشاهدة الطعام ، يقدم الاستجابة نفسها بأن يسيل لعابه ، إذا ما اقترن تقديم الطعام بصوت جرس . وبعد تكرار التجربة عدة مرات ، فإن لعابه يسيل لدى سماعه صوت الجرس دون تقديم الطعام . وأطلق بافلوف على صوت الجرس فى هذه الحالة اسم المثير الشرطى ، وعلى سيلان اللعاب دون تقديم الطعام وبمجرد سماع

Looloo
www.dvd4arab.com

صوت الجرس اسم الاستجابة الشرطية . ولقد توسّع عالم النفس الأمريكى واطسون Watson, John بالتجارب حول الاشتراط إلى جميع مناحى السلوك ، ومن بينها المنحى الوجدانى ، فقام بالربط بين السلوك الجسمى والسلوك الوجدانى . فرائحة الكباب التى تثير اللعاب ، تثير أيضًا عاطفة الاشتياق إلى تناوله . وكلمة « عصا » مسموعة أو مكتوبة ، تثير عاطفة الخوف فى قلب الطفل ، وكلمة « أمومة » تثير عاطفة الأمومة عند المرأة . وتفسير جميع العواطف يستند إلى ركائز جسمية . فالكباب يشبع الجوع ، والعصا تؤلم الجسم ، والأمومة منشؤها مجموعة من الأنشطة البيولوجية .

ثانيًا ـ النمو : فالجنين فى بطن أمه لا يبدى أى عاطفة ، وإن كانت التجارب قد أثبتت أنه ينفعل ، أو بمعنى أصح يستثار ، إذا ما استثير جهازه العصبى ، أو إذا ما استثيرت بعض غدده الصماء . وحتى ميلاد الطفل ، فإنه وهو يبكى ، لا يكون موجّهًا انفعالاته وجهات معينة ، بل يكون بمثابة تفجُّرات انفعالية غير متلبسة بصيغ عاطفية معينة ، أو قل إن وجدانه الفائر مع انفعالاته ، يكون بمثابة خامة ، سوف تصنّع منها العواطف بعد أن يأخذ فى النمو . وبالفعل فكلما تقدم ذلك الطفل فى النمو ، فإنه يبلور وجدانه حول محاور معينة ، وتتشكل فى قوامه عواطف متباينة ، إما أن تكون عواطف حب ، وإما أن تكون عواطف كراهية .

ثالثًا ـ الاصطدام بالواقع : فالكائن البيولوجى المتمثل فى الجنين ، ثم فى الوليد ، يصطدم بالواقع الخارجى الذى لا يناسب قوامه ، ولم يسبق له أن تكيّف معه ، فيتأتى عن ذلك الصدام ما يظهر فى سلوكه من انفعال ووجدان فائر ، تمامًا كما تخرج النار من قوام الحجر

الصوان بعد احتكاكه بحجر آخر . ومن الانفعالات ينبثق الوجدان الذى يتبلور حول موضوعات متباينة ، ويستحيل بذلك إلى عواطف .

المعنى التعلقى :

قلنا إن العاطفة هى تبلور الوجدان حول بعض الموضوعات الخارجية ، وأن ذلك التبلور إما أن يكون تبلورًا إيجابيًا فيتأتى عنه الحب ، وإما أن يكون تبلورًا سلبيًا فتتأتى عنه الكراهية . وعلينا فيما يلى أن نستعرض الموضوعات التى يتبلور الوجدان حولها :

أولاً ـ الأشخاص : فالمرء منذ طفولته ، وهو يأخذ فى بلورة وجدانه حول الأشخاص الذين يحيطون به ، ويتعاملون معه . فهو يحب بعضهم ، ويكره بعضهم الآخر . وطالما أن المرء يتعامل مع الناس ، فإنه يستمر فى بلورة وجدانه حولهم بالإيجاب ، أى أنه يحبهم ، أو بالسلب ، أى أنه يكرههم . ولكن يبدو أن المرء كلما تقدم فى العمر ، فإن بلورة وجدانه حول الناس ، بل وحول الموضوعات الخارجية عمومًا ، تأخذ فى التناقص .

ثانيًا ـ الشخصيات التاريخية والخيالية : ومع نمو الطفل وترعرع خياله ، فإنه يأخذ فى بلورة وجدانه حول بعض الشخصيات التاريخية الدينية والسياسية والاجتماعية ، وأيضًا حول الشخصيات الخيالية .

ثالثًا ـ المبادئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية : وأيضًا مع اتساع الأفق العقلى للمرء ، فإنه يأخذ فى بلورة وجدانه حول مجموعة من المبادئ التى يستهدى بها فى حياته الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية . وقد تكون عواطفه الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية ، أقوى العواطف التى تعتمل فى

Looloo
www.dvd4arab.com

شخصيته ، والتى تتبدى فى سلوكه وعلاقاته ، وما تتصف به شخصيته من سمات معينة .

المعنى الوظيفى :

حيث إن اليدين توظّفان للإمساك بالأشياء ، والرجلين للمشى ، والعينين للرؤية ، وكل عضو من أعضاء الجسم للنهوض بالمهام التى تناسبه ، فإن العواطف تنشأ نتيجة اعتمال ضرورة ملحة ، هى الارتباط بالآخرين . ومعنى هذا أن الحاجة إلى إقامة روابط بالآخرين هى التى تخلق العواطف ، وليست العواطف هى التى تخلق الروابط الاجتماعية . فاعتمال الشعور بالحاجة إلى الارتباط بالآخرين ، هو الذى يبعث على تبلور الوجدان حولهم ، ومن ثمّ فإن عواطف الحب والكراهية تتبدى فى سلوك المرء .

ولعلنا نتساءل عن الوسائل التى تعمل على خلق العواطف فى قوام شخصية المرء ، فنقدم أهم أنواعها على النحو التالى :

أولاً ـ احتدام الحاجات : فثمة حاجات تعتمل فى قوام المرء ، كالحاجة إلى الطعام والماء ، والحاجة إلى الدفء ، والحاجة إلى إشباع الجنس ، وغير ذلك من حاجات . وترتبط الرغبات بالحاجات ، فكلما بزغت حاجة معينة لدى المرء ، بزغت لديه رغبة فى إشباعها ، والرغبات لا تعدو أن تكون عواطف منصبّة على إشباع حاجات معينة .

ثانيًا ـ تهديد أمن المرء : فعندما يحس المرء بأنه مهدد فى أمنه ، أو أن حياته فى خطر ، عندئذ تنبثق لديه عاطفة الخوف ، ومن ثَمّ فإنه إذا وجد من يذُب عنه الخوف ، ويكفل له الأمن والطمأنينة ، فإنه يوجه إليه عواطف الحب .

ثالثًا ـ تحقيق أهداف معينة : ولقد تتأتى العواطف نتيجة الحاجة إلى تحقيق أهداف معينة . فالتاجر الذى يتوقع أنه سوف يربح من أحد زبائنه مالاً أكثر مما يتوقع أن يربحه من زبون آخر ، فإن ذلك يخلق لديه عاطفة حب يوجهها إلى الزبون الأول ، أكثر مما يخلق لديه من تلك العاطفة لكى يوجهها إلى الزبون الثانى .

المعنى العلائقى :

وهذا المعنى ينصب على العلاقات الاجتماعية ، وكيف أن العواطف تفسر فى ضونها . فالغريزة الجمعية ، أى ضرورة ارتباط المرء بغيره من أشخاص ، سواء اتصل بهم اتصالا مباشرًا ، أم اتصل بهم بطريق غير مباشر ، يمكن أن تفسر بأن الإنسان مجبول على التعلق عاطفيًا بالآخرين . فهو لكونه متعلقًا بالآخرين ، فإنه ينعطف إليهم ، ويتعلق بهم بالحب . وإذا انقلب حبه إلى كراهية لهم ، فإن هذا لا يعنى أن حبه لهم قد تلاشى ، بل يعنى أن حبه قد انعكس ، تمامًا كما تقلب الجرّة على فوهتها . فالجرة المقلوبة على فوهتها يمكن أن تُعدل مرة أخرى . كذا فإن الكراهية باعتبارها حبًا مقلوبًا ، يمكن أن تستحيل إلى حب مرة أخرى . صحيح أن الرواسب النفسية أو الذكريات أو المواقف أو التصرفات الرديئة يمكن أن تعترض الطريق نحو إحالة الكراهية إلى حب مرة أخرى ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون صعوبة فحسب ، وليس استحالة كما قد يبدو . فكم من أصدقاء استحالوا إلى أعداء ، ثم استحالوا مرة أخرى إلى أصدقاء .

وعلينا أن نلقى الضوء على هذا المعنى العلائقى ، حتى نتبين أنحاءه المتباينة ، فنجد أن تلك الأنحاء يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ــ العلاقات الجنسية : فالغريزة الجنسية تنحو إلى تحقيق الارتباط الحميم بين ذكر وأنثى ، بل تنحو إلى تحقيق الاتحاد بينهما جسميًا وعاطفيًا . ولا شك أن الحرمان من تحقيق ذلك الارتباط الحميم أو تأجيله ، يعمل على إشعال جذوة العاطفة والرغبة الملحة لتحقيق ذلك الارتباط .

ثانيًا ــ علاقات الدم : وهى علاقات الأمومة والأبوة والأخوة وأيضًا العلاقات الدموية بين الأقرباء بعضهم وبعض . ولكن كما قلنا ، فإن علاقات الحب يمكن أن تنقلب مؤقتًا أو بصفة دائمة إلى علاقات متسمة بالكراهية .

ثالثًا ــ علاقات الجوار : فكلما تجاور الناس بعضهم مع بعض لمدد طويلة ، فإن العواطف تتبلور بينهم ، ويحسون بالارتباط بعضهم ببعض ، وعدم الاستغناء عن استمرار عشرتهم والتعامل فيما بينهم ، ومؤانستهم ، وقضاء أوقات الفراغ فى صحبتهم .

المعنى اللاشعورى :

وهذا المعنى هو المعنى الذى أبرزه فرويد فى دراساته للاشعور . فثمة جهاز نفسى يسمى اللاشعور تختزن به الخبرات التى أثّرت فى الجهاز النفسى للمرء ، أو أحدثت به صدمات نفسية ، أو حالت بينه وبين إشباع رغباته . فالواقع أن المجتمع يحد من إشباع الكثير من الرغبات ، وبخاصة الرغبات الجنسية . فما لم يظفر بالإشباع من تلك الرغبات ، فإنه يجد له مستقرًا فى نطاق اللاشعور .

ومعنى هذا أن اللاشعور يختزن بدخيلته الكثير من العواطف ، سواء كانت عواطف حب ، أم عواطف كراهية . والواقع أن فرويد يؤكد أن الواقع اللاشعورى لدى المرء يتمتع بالهيمنة على الواقع

الشعورى . ففى أكثر الأوقات يقظة وانتباهًا ، يلعب اللاشعور الدور الرئيسى فى السلوك . فنحن نحلم حتى ونحن يقظانين ، وذلك فى أثناء السرحان الذى نسميه أحلام اليقظة . فسلوكنا الإرادى مدفوع من دخيلتنا بالمقومات اللاشعورية التى تطل من خلاله .

والسؤال الملح بهذه المناسبة هو : هل اللاشعور الذى أكّد عليه فرويد ، هو اللاشعور الوحيد لدى الإنسان ؟ الإجابة فى رأينا أن هناك لا شعورين : اللاشعور الذى عرض له فرويد ، واللاشعور العام . فالكثير من أجهزة الجسم تعمل وفقًا لهذا اللاشعور الأخير . ولعلنا نقول إن الجنين والوليد يبديان نشاطهما فى نطاق هذا اللاشعور العام . ولكن هل يتخلص المرء ــ وقد شب عن الطوق ــ من هذا اللاشعور العام فى سلوكه ؟ إننا نشك فى هذا ، بل ونعتقد أن هذا اللاشعور العام هو المنبع الذى يصدر عنه الوجدان الذى يتم تصنيعه فيستحيل إلى عواطف متباينة ومتعينة .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى
موضوعات العاطفة

الموجودات الحسية :

سبق أن قلنا إن العاطفة التى تنشأ بين المرء وبين الموجودات المحيطة به ، إنما هى نتيجة تبلور وجدانه حولها . وثمة مجموعة من الحالات التى يتم خلالها تبلور الوجدان حول ما يحيط بالمرء من أشياء ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ التقارب المكانى : فمن شروط تبلور الوجدان حول أى موضوع حسى ، أن يكون موجودًا بالقرب من المرء ، وفى محيط إدراكه . ولكن بعد أن صار من الممكن نقل صور الأشياء والأحياء عبر شاشات التليفزيون ، فإن القرب المكانى من المرء صار قُرْبَيْن وليس قربًا واحدًا : القرب المكانى المباشر ، والقرب المكانى الرمزى . فالقرب المكانى المباشر يتأتى نتيجة تواجد الشىء أو الكائن الحى أو الإنسان فى المكان الذى يوجد به المرء ، أما القرب المكانى الرمزى ، فهو مشاهدة الموضوع البعيد عن المكان الذى يوجد به المرء على شاشة التليفزيون وسماع صوته إذا كان مما يُصدر صوتًا . وقد يكون سماع الصوت وحده عاملاً على تبلور الوجدان حول صاحب الصوت . وهذا كثيرًا ما يحدث لدى سماع صوت مطرب أو مطربة فى الإذاعة ، أو من خلال شريط كاسيت ، دون مشاهدة ملامح الوجه . وعلى أية حال فإن المكان المباشر أو المكان الرمزى ،

يعتبر شرطًا رئيسيًا ، حتى يتسنى تبلور الوجدان حول الموضوع المدرك .

ثانيًا ـ التواتر الإدراكى : بيد أن التقارب المكانى بين المرء وبين الموضوع الذى يتسنى تبلور الوجدان حوله ، يجب أن يتواكب مع تكرار الإدراك عدة مرات فى أوقات ليست متباعدة جدًا ، وليست متقاربة جدًا . فمثلاً اللقاء اليومى بين الزملاء فى العمل ، يعتبر من عوامل تبلور وجدان كل منهم حول شخصيات زملائه .

ثالثًا ـ الرابطة الموضوعية : ونعنى بها أن يكون هناك عامل يربط بين المرء وبين الموضوع الخارجى ، سواء كان جمادًا أم نباتًا أم حيوانًا أم إنسانًا . فمثلاً بالنسبة لزملاء العمل ، فإن المهام الوظيفية المشتركة فيما بينهم ، تعمل على بلورة وجدانهم حول بعضهم بعضًا . وقد يكون العامل المشترك بين المرء والموضوع الذى يتبلور الوجدان حوله ، هو المواصفات التى توجد فى الشىء الموضوعى الخارجى . فالشىء أو الشخص الجميل يبعث على جذب انتباه المرء إليه ، فيعمل ذلك الجمال على بلورة وجدانه حول ذلك الشىء الجميل أو الشخص الجميل .

رابعًا ـ إشباع حاجة شخصية : فمن عوامل تبلور الوجدان حول موضوع خارجى ، قيامه بإشباع غريزة أو حاجة نفسية لدى المرء . فالشاب الذى يقابل شابة فينجذب إليها ويتعلق بها ، إنما يكون ارتباطه بتلك الشابة ، عاملاً على إشباع ما يعتمل فى قوامه من نوازع جنسية ، واعتمال حاجة لديه إلى إشباعها . فيحس أن ارتباطه بتلك الشابة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

يُشكِّل ضرورة مُلِحَّة . وبتعبير آخر فإن وجدانه يكون قد تبلور بالفعل حول شخصية تلك الشابة .

خامسًا ــ التركيز الذهنى : ومن شروط تبلور الوجدان حول الكائن الموضوعى الخارجى ــ كائنًا ما يكون ــ تركيز ذهن المرء فيه لمدة كافية ، حتى يتسنى بلْورة الوجدان حوله . فالتشتت الذهنى ، أو الإدراك السطحى العابر ، أو انشغال انتباه المرء بموضوع ما ، لا يساعد على بلورة الوجدان حول أى من الموضوعات الخارجية .

الله وملائكته :

منذ أن فتَّح الإنسان عينيه على الوجود ، وهو يحس بأن هناك قوة عليا فوق جميع الموجودات وأعظم منها ، وأقوى من كل الجبابرة ، ومن كل الوحوش المفترسة والطيور الكواسر ، بل وأقوى من البراكين الفائرة والصواعق الماحقة والأعاصير المدمرة . وحتى قبل نزول الرسالات السماوية على الأنبياء ، فإن الإنسان كان متدينًا بالطبع ، ومتعبدًا بالسليقة ، أو قل إن رسالات السماء كانت تَشيع عليه من بعيد ، أى بطريق مباشر دون وسائط . فكان الإنسان البدائى يتعبد كما تتعبد المخلوقات جميعًا لخالقها الذى أوجدها ويرعاها .

وحتى عندما يكون الإنسان فى ضلال مبين ، وقد توانى عن ممارسة العبادة ، وسلك طريق الشر ، فإن حبه لخالقه يظل موجودًا فى قوامه ، لكن غشاوة الضلال تعميه عن ذلك الحب ، أو تُغلِّفه ، سواء استمر ذلك العَماء وهذا التغليف حتى نهاية عمره ، أم انزاح عنه ، فتوهج حبه لخالقه ، واستولى على سلوكه الباطنى وسلوكه الخارجى معًا .

فالناس جميعًا يحبون خالقهم ، سواء كانوا متعبدين أم منصرفين عن العبادة . وشاهد ذلك أن أكثر الناس معصية وضلالاً أو إلحادًا ، إذا ما وقعوا فى ورطة تهدد حياتهم أو أمنهم ، فإنهم يصرخون طالبين النجدة من خالقهم وحبيبهم الذى ينقذهم فى وقت الضيق ، ويخرجهم من المآزق التى وقعوا فيها ، أو التى اكتنفت مسيرة حياتهم .

وهناك مجموعة من العوامل التى تساعد على تبلور وجدان المرء حول الخالق وملائكته لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً ــ التنشئة الدينية : فمن أهم العوامل المؤثرة فى بلورة الوجدان حول الذات الإلهية والملائكة ، ما يتلقاه المرء منذ نعومة أظفاره من تنشئة روحية . وهذه التنشئة تعتمد على ثلاثة أضلاع رئيسية هى : الإيحاء والتقليد والمعرفة . والإيحاء الذى نعنيه عبارة عن انتقال الأحاسيس الوجدانية من شخص إلى شخص آخر بغير كلام أو تعليم مباشر . فالطفل الذى يشاهد والديه فى حالة من التقوى والتعبد ، يستمد تلك الروح التى تسرى فى سلوكهما بطريق مباشر ، بغير كلام موصول فيما بينه وبينهما . أما التقليد فإنه ينصب على الحركات التى تنتقل مباشرة من شخص لآخر ، سواء كان التقليد مصحوبًا بالتمرين ، أم كان تلقائيًا ومباشرًا . فالابن الصغير الذى يشاهد والديه وأخواته الأكبر منه وهم يصلون ويضرعون إلى خالقهم بالدعاء ، فإنه يقلد ما يفعلونه دون أن يدرك المضمون الذى ينطوى عليه سلوكهم . أما المعرفة الدينية فإنها تتساوق مع نمو الذهن واللغة . فبقدر ما يتسنى للطفل تفهمه ، يجب أن تقدم إليه المعلومات الدينية . ولكن كثيرًا ما يحفظ الصغير نصوصًا أو آيات دينية قبل أن يدرك معناها .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ـ استمرار الممارسة الدينية : ومن عوامل استمرار تبلور الوجدان حول الذات الإلهية والملائكة ، مداومة الاتصال الروحى بالصلاة ، ومداومة الاطلاع على النصوص الدينية ، والمواظبة على التأمل ومراجعة النفس ، والعمل على إزالة العقبات التى تعترض طريق التقوى . ذلك أنه بغير الاستمرار فى تلك الممارسة ، فإن ما سبق أن تبلور حول الذات الإلهية والملائكة من وجدان ، وصار عاطفة متأججة ، سرعان ما يتحلل ويذوى .

ثالثًا ـ ربط التقوى بالأعمال الصالحة : فالواقع أن السلوك المفعم بالأعمال الصالحة ، كالعطف على الفقراء ، ومواساة المرضى ورعايتهم ، وتعزية الحزانى ، والالتزام بالصدق فى القول والعمل ، والتسربل بالأمانة ، ومراعاة حقوق الآخرين ، وعدم اقتراف الآثام التى ينهى عنها الدين ، إلى غير ذلك من ألوان السلوك المستقيم والصالح والخالى من الشر ، يعتبر شرطًا لاستمرار بلورة الوجدان حول الذات الإلهية والملائكة .

رابعًا ـ تقديم التضحيات : ومن شروط استمرار البلورة الوجدانية حول الذات الإلهية والملائكة والعمل على تقويتها ، ما يتسنى للمرء تقديمه من تضحيات من صحته وممتلكاته . فالشخص الذى يصوم ويتقشف ويحرم نفسه بإرادته من بعض لذائذ الحياة ، والذى يفضّل الآخرين على نفسه ، ويؤثرهم بما يحبه ويتعشقه ، والذى يقدّم من ماله إلى الفقراء والمساكين ، ويساهم فى أعمال الخير المتباينة ، إنما يكون بذلك عاملاً على تقوية ارتباطه بعواطفه بخالقه وملائكته . ولسنا ننسى التضحيات الكبرى التى قدمها الشهداء الذين تصدوا للمعتدين على إيمانهم ، محاولين إرغامهم على اتباع طريق الكفر وعبادة الأصنام . فهؤلاء الشهداء كانوا وقت استشهادهم ، فى أوّج

التبلور الوجدانى حول الذات الإلهية ، بل قل إنهم كانوا فى لحظة الانطلاق من العالم إلى العالم الآخر ، فى أوّج العلاقة الروحية العاطفية مع خالقهم .

المبادئ الأخلاقية :

هناك ثلاث زوايا يمكن أن ننظر منها إلى المبادئ الأخلاقية : زاوية الخير والشر ، وزاوية المناسب وغير المناسب ، وزاوية الجميل والقبيح . ولعلنا نقوم بإلقاء الضوء على هذه الزوايا الثلاث تباعًا على النحو التالى :

أولاً ـ زاوية الخير والشر : فإلى جانب الوصايا السماوية التى وردت بالكتب المقدسة فيما يتعلق بالحض على اتباع الخير واجتناب الشر ، وتحديد أنواع الخير التى يجب اتباعها ، وأنواع الشر التى يجب تحاشيها والنأى عنها ، فإن الحضارة ، بما تطورت إليه ، قد حملت معها أنواعًا مستحدثة من الشر . من ذلك مثلاً تعاطى المخدرات والاتجار فيها ، والمشاركة فى عمليات نقل الأعضاء البشرية من الأسرى والمجرمين أو الاتجار فيها ، والتهرب من الضرائب أو الجمارك ، وتزويج البنات الصغار وحرمانهن من التعليم ، إلى غير ذلك من أوضاع وتصرفات يمكن درجها فى نطاق الشر .

ثانيًا ـ زاوية المناسب وغير المناسب : فمن التصرفات غير المناسبة التى يجب تحاشيها مخالفة نظام المرور وعدم الالتزام به فى قيادة السيارة ومخالفة إشارات المرور ، واستخدام الأبواق بطريقة منفّرة ، أو استخدام أبواق مرتفعة الصوت جدًا . وتنظيف السجاجيد من مشارف الشقق ، وعدم ارتداء الأزياء المناسبة للمقام الذى يوجد به المرء . إلى غير ذلك من أنواع السلوك غير المناسبة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثالثًا ـ زاوية الجميل والقبيح : وكذا من الواجب مراعاة الجمال فى الكلام ، وفى المظهر الخارجى ، وفى ترتيب البيت . والواقع أن الجمال يتمشى مع النظافة ، بينما يتمشى القبح مع القذارة .

وتتطلب مراعاة هذه الزوايا الثلاث والالتزام بما هو خير ، وما هو مناسب ، وما هو جميل ، بلورة الوجدان بالطريقة السليمة حتى يتسنى للمرء أن يكون شخصًا محبًّا للخير وناهجًا نَهْجَه ، ومراعيًا الأصول وملتزمًا فى سلوكه بالمناسب ، ونائيًا عن غير المناسب ، ومحبًّا للجمال ، وعاملاً على دعمه ، بل ومشاركًا فى خلقه وإشاعته فى البيئة المحيطة به .

ولعلنا نقول إن هناك مجموعة من العوامل التى يجب أن تتوافر حتى يتسنى ترسيخ المبادئ الأخلاقية فى قوام المرء نفسيًّا وسلوكيًّا على النحو التالى :

أولاً ـ ارتباط السلوك الأخلاقى السليم بسعادة المرء : فكلما تسنى إقامة رابطة متينة فيما بين السلوك الأخلاقى الجيد وبين سعادة المرء ، فإن ذلك يعمل على غرس روح السلوك الأخلاقى السليم فى قوامه ، ويحمله على التمسك به واتباعه فى حياته .

ثانيًا ـ التوعية المستمرة : فكلما تحقق الربط بين المعرفة الأخلاقية وبين السلوك الأخلاقى السليم ، فإن ذلك يعمل على استمرار بلورة الوجدان حول المبادئ الأخلاقية الجيدة ، والنأى عن المبادئ الأخلاقية الفاسدة .

ثالثًا ـ ارتباط المبادئ الأخلاقية القويمة بالفائدة : فكلما تسنى الربط بين اتباع المبادئ الأخلاقية القويمة ، بما يترتب عليها من جنى للفوائد ، فإن ذلك يعمل على تحقيق البلورة الوجدانية حول تلك المبادئ الأخلاقية .

الوطن :

إن حب الوطن يبدأ من حب الأسرة . وبتعبير آخر فإن هناك دوائر عديدة متداخلة ، وأصغر دائرة من تلك الدوائر هى دائرة الأسرة ، والدائرة التالية فى الاتساع هى دائرة الجيران ، وتتبعها دائرة الحى فالقرية أو البلدة أو المدينة ، ثم تأتى الدائرة التى تشمل الوطن بأسره .

وهناك فى الواقع مجموعة من العوامل التى تساعد على بلورة الوجدان حول مفهوم الوطن نقدمها على النحو التالى :

أولاً ـ الوعى بحدود الوطن وإمكاناته : فلكى يتسنى الشعور بالانتماء للوطن ، لا بد من وقف المواطنين على حدوده ، وما يضمه فى أنحائه من محافظات ، وما تشتهر به كل محافظة من محاصيل زراعية ، ومن صناعات وأنشطة متباينة ، وما يشيع فى كل منها من عادات وتقاليد ، وما تختلف فيه عن غيرها من لهجات لغوية . والروابط التى تجمع جميع المحافظات فيما بينها ، والثروات التى يمكن أن تستثمر فى كل منها فى المستقبل .

ثانيًا ـ العلاقات القائمة بين وطننا والأوطان الأخرى : ومن العوامل التى تثبت عاطفة الحب والولاء والانتماء نحو الوطن ، الوقوف على العلاقات التى تربط وطننا بالأوطان الأخرى ، بل الوقوف على المشكلات التى تنشأ على الحدود ، أو بإزاء الثروات المائية والمعدنية ، وما هو قائم من تعاون وتنافس بيننا وبينها . فالوعى بهذه المسائل وأمثالها ، يعمل على إشعال عاطفة الحب للوطن والغيرة على مصالحه .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثالثًا ـ إشاعة النظرة المستقبلية : ومن عوامل ترسيخ العاطفة نحو الوطن ، وقف المواطنين على ما يمكن استثماره فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد من إمكانات ما تزال متاحة ، سواء من حيث الثروات المعدنية ، أم من حيث الثروة البشرية التى يمكن استثمارها ، أم من حيث المواقع التى يمكن أن تنشأ بها المدن ، وتقام بها المصانع ، ونحو ذلك من أوجه التوعية المستقبلية المتباينة .

الثقافة :

يختلف مفهوم الثقافة على الألسنة والأقلام . فهناك من يحصرون مفهوم الثقافة فى نطاق الأدب والفلسفة والعلم . فالشخص المثقف فى رأيهم ، هو ذاك الذى يعرف الكثير من المعلومات المستمدة من هذه المجالات الثلاثة ، ويكون بمقدوره التعبير عما يعرفه ، سواء بالكلام المنطوق ، أم بالكلام المكتوب . وهناك من يتوسّعون بمفهوم الثقافة ليضم فى نطاقه إلى جانب الأدب والفلسفة والعلم ، الفن بأنواعه المتباينة ، والمهارات الحركية ، والمهارات الاجتماعية ، والمهارات الاقتصادية ، والقيم الدينية والأخلاقية . ونحن نميل إلى التوسع بمفهوم الثقافة بحيث يتطابق مع مفهوم الحضارة .

وعلى أية حال فإن الشخص فى أى موقع لابد أن يوجه عواطفه إلى نوعية ثقافية من النوعيات الكثيرة التى ذكرناها ، أو التى لم نذكرها . وعلينا أن نقدم فيما يلى العوامل التى تساعد على بلورة الوجدان حول الثقافة التى ينتحى إليها المرء على النحو التالى :

أولاً ـ الاستعدادات الشخصية : فكلما كان لدى المرء استعداد لنوعية معينة من نوعيات الثقافة ، فإن تهيؤه لتوجيه عاطفته نحوها ، يكون أقوى وأفعل فى حياته . وعلى رأس الاستعدادات الشخصية الاستعدادات الجسمية ، ومستوى الذكاء ، والقدرات الخاصة التى تتعلق بالنوعيات الثقافية المتباينة .

ثانيًا ـ الإمكانات المتاحة : وإلى جانب الاستعدادات الشخصية ، لابد من توافر الإمكانات المتاحة حول المرء بحيث يتسنى له استثمارها والإفادة منها . فمثلاً بالنسبة للثقافة الأدبية ، فإن توافر المصادر والكتب والمراجع ووجود الرواد من الأدباء الذين يتسنى تلقى الثقافة الأدبية عنهم ، يعتبر شرطًا ضروريًا حتى يتسنى توجيه الوجدان وتبلوره حولها .

ثالثًا ـ الشعور بإحراز التقدم : فكلما أحس المرء بأنه يتقدم فى المضمار الثقافى الذى اختاره ، فإن ذلك يبث فيه الحماس لزيادة الاكتساب الثقافى ، وبالتالى فإنه يبذل قصارى جهده للتفوق فى ذلك المضمار .

رابعًا ـ تنويع المصادر الثقافية : ومن عوامل تركيز العاطفة فى المصدر الثقافى الذى اختاره المرء لاكتسابه وسَبْر أغواره ، تنويع المصادر الثقافية المتعلقة به . فمن اختار الفلسفة ثقافة له ، فإن عليه أن يطّلع على فلسفات الفلاسفة المتباينين ، وأن يقارن فيما بين ما ذهب إليه الواحد منهم بسواه من فلاسفة . ذلك أن تنويع المصادر الثقافية ينشّط العاطفة التى يوجهها المرء الذى اختار الفلسفة إلى هذه النوعية الثقافية .

Looloo
www.dvd4arab.com

خامسًا ــ المشاركة فى النوعية الثقافية : وإلى جانب تنويع المصادر الثقافية ، فإن من الضرورى التمكن من ممارسة الثقافة ، وتوفير وسائل الممارسة . فبغير التصدير الثقافى إلى جانب الاستقبال الثقافى ، فإن المرء لا يكون قد اكتسب الثقافة كما ينبغى . فكما أن مُكتسب الثقافة يوجه عاطفته نحو مصادر الثقافة ، فإنه على النحو نفسه يوجه عاطفته إلى الوسائل التى يمارس بها تلك الثقافة ، أو يشارك فى ممارستها . فالمؤلف لابد أن يشارك بالقلم أو بالآلة الكاتبة أو بالكومبيوتر فى التعبير عن خلجاته الثقافية بإزاء المضمار الثقافى الذى اختاره لتكريس جهده له .

★ ★ ★

الفصل الثالث
مثيرات العاطفة

تهديد الأمن :

طالما أن المرء يحس بالأمن والأمان ، ولا يوجد شىء يهدد كيانه ، فإنه يكون هادئ الوجدان ، ولا تثور عاطفته . ولكنه إذا شعر أو أدرك أنه مهدد بالخطر ، سواء هو أو أحد أحبائه ، فإن عاطفته تهتاج وتثور . ولعلنا نتساءل عن الأسباب التى تبعث على هيجان العاطفة عندما يحس المرء بالخطر يحدق به ، فنجد أن تلك الأسباب يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً ــ الاستعداد النفسى : فالواقع أن العاطفة المتبلورة حول الذات ــ وهى التى أطلق عليها مكدوجال اسم عاطفة اعتبار الذات Self – Regarding Sentiment بمثابة الجندى الحارس للذات . فعندما يحس الجندى بالخطر المُحْدق ، فإنه ينهض لتوه ويطلق صفارات الخطر ، حتى تأتى القوة الكافية لصد الأعداء . وهذا ما يحدث عندما يدرك المرء أنه مهدد فى أمنه وسلامته . فبمجرد أن يُصْدر إشارة إلى عاطفة اعتبار الذات بأنه أدرك وجود خطر يتهدده ، فإنها تثور فورًا طالبة من الإرادة أن تجند إمكاناته للدفاع عن كيانه .

ثانيًا ــ دعم الإرادة : والعاطفة ــ بما تشتمل عليه من وجدان ــ بمثابة الطاقة النفسية التى تستخدمها الإرادة فى الدفاع عن النفس . من

Looloo
www.dvd4arab.com

هنا فإن هيجان العاطفة يعنى فى الوقت نفسه ، أن ثمة طاقة نفسية صارت فى خدمة الإرادة . فبغير تلك الطاقة ، فإن إرادة المرء تكون عاجزة عن الاضطلاع بأى نشاط ، وبالتالى فإنها لا تنهض للدفاع عن الذات .

ثالثًا ـ الاستعداد للهروب : ولقد يكون هيجان عاطفة اعتبار الذات لغرض آخر غير الغرض الدفاعى ، هو الغرض الهروبى .. ففى هذه الحالة ، فإن الطاقة النفسية لا تستخدم فى شن حملة ضد مصدر الخطر المهدد للأمن الشخصى ، بل تستخدم استعدادًا للهروب من الموقف . فبدلاً من أن تتسلح الإرادة وتستعد لصد العدوان ، فإنها تتذرع بتلك الطاقة وتوجهها إلى العضلات ، وبخاصة عضلات الفخذين والساقين للانطلاق هربًا من الموقف المهدد للأمن .

رابعًا ـ اعتمال العقل : ولقد تتجه الطاقة العاطفية إلى العقل ، بعد أن تصل إليها الرسالة التى تنبئها بوجود الخطر المهدد للمرء ، فتستحثها لاتخاذ الإجراءات المناسبة . فبدلاً من صد الهجوم بهجوم مماثل ، وبدلاً من الاستعداد للهروب ، فإن الطاقة النفسية تستثمر فى اتخاذ الإجراءات الوقائية التى تبْطل عوامل الهجوم الموجّه ضد المرء . فلقد يستعان باتخاذ الإجراءات القانونية ، أو بوضع خطة للمصالحة مع الأعداء ، أو لإزالة الحجج التى يستعان بها فى الهجوم على المرء ، وفى تهديد أمنه ، والاستعانة بغير ذلك من ركائز وقائية تعتمد أساسًا على إعمال العقل فى الموقف ، والتعامل معه بطرق غير مباشرة ، أو بطرق دبلوماسية هادئة . فلا تكون الفورة العاطفية مباغتة أو هادرة ، بل تتخذ لها طريقًا عقلانيًا . فهى تكون كأنبوبة البوتاجاز التى لا تنفجر ، بل يستفاد من الغاز المضغوط بداخلها فى الأغراض المنزلية المستأنية . فبدلاً من أن يكون الغاز مدمرًا ، فإنه يكون نافعًا .

خامسًا ـ الاستعانة بخبرات الآخرين : ولقد يعمل اشتعال العاطفة ، بسبب الشعور بتهديد الأمن ، على التوجه إلى مصادر الخبرة الخارجية ، فيطلب المرء من أصحاب الخبرة معاونته للتغلب على الخطر المُحْدق به ، والذى يهدد أمنه وأمانه . فتلك الطاقة العاطفية تتخذ لها فى هذه الحالة طريقًا اجتماعيًا . فعلى أساس ما يشير به أصحاب الخبرة ، فإن المرء يحظى بالوسائل التى تساعده على التخفف من الشعور بتهديد أمنه وأمانه . ولقد يكون فى اللجوء إلى أصحاب الخبرة فائدة نفسية . ذلك أن العاطفة المهتاجة تجد ما يعمل على تهدئتها ، وإشاعة السكينة فى أوصالها ، بما يحدث من مشاركة وجدانية بين المرء وبين الصديق أو الأصدقاء الذين يكلأونه بعطفهم وتعاطفهم . فحتى بغير أن يقدّموا إليه أية نصيحة إيجابية ، فإن مجرد عرض المشكلة أمامهم ، ومناقشتهم لها ، وتهدئتهم للمرء ، فإن الطمأنينة تعود إلى قلبه ، ويرى أن المشكلة التى عملت على اهتياج عاطفته ، لا تستحق كل ذلك الاهتياج المبالغ فيه .

الأحداث المفاجئة :

كما هو معروف ، فإن الحياة لا تسير فى خط مستقيم ، بل تسير فى خط مفعم بالمنعطفات التى يكون بعضها حادًا كأشد ما تكون الحدّة ، وبعضها الآخر متوسط الانعطاف . والانعطافات المفاجئة هى تلك الأحداث المفاجئة ، سواء كانت أحداثًا سارة أم أحداثًا مكدّرة .

وعلينا أن نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على علاقة تلك الأحداث المفاجئة بإثارة العاطفة ، فنجد أن تلك العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ـ اصطدام المتوقَّع بغير المتوقَّع : فالواقع أن المرء فى سياق حياته اليومية ، ينظر إلى المستقبل المتوقع ، ويُعد له الطاقة الوجدانية التى تناسبه بغير زيادة وبغير نقصان . فالمرء لا يعيش اللحظة الراهنة فحسب ، بل يعيش تلك اللحظة والمستقبل القريب المتوقع أيضًا . وبالتالى فإنه يُعد الطاقة النفسية التى تكفى للاستهلاك اللحظى وللاستهلاك المستقبلى المتوقَّع . فإذا ما حدثت وقائع مغايرة تمامًا لما يتوقعه المرء ، فإن الطاقة الوجدانية التى جهزها للمتوقَّع لا تكفى ، وبالتالى فإنه يستشعر أزمة نفسية محتدمة بدخيلته . وتستدعى هذه الأزمة إذن بذل أقصى الجهد نفسيًا للتعويض عن ذلك النقص فى الطاقة التى يحتاج إليها الموقف غير المتوقع . فالثورة العاطفية التى يحسها المرء لدى وقوع الأحداث المفاجئة ، هى فى الواقع الرد الطبيعى على النقص فى الطاقة الوجدانية المتوافرة ، والتى لا تكفى لمجابهة الموقف المفاجئ . فهى بمثابة الاستنجاد للعمل على زيادة تلك الطاقة ودعْمها بسرعة ، حتى يتسنى مجابهة ذلك الموقف المفاجئ ، وملاقاة ما يحمله من أحداث ووقائع لم يكن المرء متوقعًا حدوثها .

ثانيًا ـ التخلف الإرادى : والأحداث المفاجئة تعنى أن ثمة مفارقة بين ما يدركه المرء أو يتوقَّعه ، وبين ما يقع بالفعل . فلكأن هناك مَنْطقين : منطق شخصى ، ومنطق آخر حدثى ، فبينما يفكر المرء بطريقة ، فإن الأحداث التى تقع تتم بطريقة أخرى . فالمرء يحس لدى وقوع الحدث المفاجئ ، أنه متخلف فى توقعاته عما يحدث بالفعل . فماذا تكون النتيجة إذن ؟ إن إحساسه بذلك التخلف ، وعدم ملاحقة تلك الأحداث المفاجئة ، أو عدم الارتفاع إلى مستواها ، يشعره بالنقص فى قوامه الذهنى ، ومن ثَمّ فإن ذلك الشعور بالنقص والتخلف عن ملاحقة

الأحداث ، يدفع به إلى الاستنجاد بالطاقة الوجدانية لعلها تقدّم إليه دعمًا إضافيًا يستخدمه فى ملاحقة التطورات التى تحدث فى الواقع ، وبذا يتسنى له اللحاق بها ، والوقوف عليها . ويتأتى عن هذا كما هو واضح أن عاطفته تهتاج وتفور .

ثالثًا ـ العجز الإرادى : وحيث إن العقل يحس بالعجز الذهنى عن استيعاب الأحداث المفاجئة غير المتوقَّعة ، فإن المرء يحس بالتالى بالعجز الإرادى . فالحدث المفاجئ ، يعمل على إصابة المرء بما يمكن أن نسميه بالشلل الإرادى المؤقت . فبدلاً من الإقدام على مجابهة الحَدَث المفاجئ ، فإنه يقف مكتوف اليدين لا يحرك ساكنًا لبضع لحظات . وبدلاً من توظيف إرادته ، فإنه يستنجد بطاقته العاطفية لكى تمده بالطاقة التى يتسنى بواسطتها تشغيل إرادته المشلولة لمجابهة ذلك الموقف المفاجئ الذى لم يكن يتوقَّعه . ومعنى هذا أن العجز الإرادى قد أثار العاطفة ، وحملها على الفوران والاندفاع نحو حفز الإرادة للعمل بقوة أكثر ، حتى يتسنى مجابهة ذلك الحَدَث المفاجئ غير المتوقَّع .

موت شخص عزيز :

عندما يفقد المرء شخصًا عزيزًا إلى قلبه ، فإن عاطفته تثور كمدًا عليه ، ويأخذ به الحزن كل مأخذ . وعلينا فيما يلى أن نلقى الضوء على علاقة فقد الشخص العزيز بثورة العاطفة ، فنجد أن هناك مجموعة من الاعتبارات التى تعتمل فى تلك الحالة نقدمها على النحو التالى :

أولاً ـ تناقض الوجود والعدم : فالحياة وجود ، والموت عَدَم . والواقع أن الصدام الذى يقع بين الوجود والعدم صدام مُرَوِّع للغاية . فالعلاقة بين الصحة والمرض علاقة نسبية ، بمعنى أن أعلى مستوى

www.dvd4arab.com

من الصحة ، يتضمن بعض المرض ، كما أن أحط مستوى من المرض ينطوى على بعض الصحة ، مهما كان قليلاً . فهذه العلاقة القائمة بين الصحة والمرض هى علاقة تضاد ، وهى كعلاقة النور بالظلام . فأشد حالات الظُلْمة ، تتضمن بعض النور ، كما أن أشد حالات النور ، تتضمن بعض الظُلْمة . والحال يختلف جذريًا بإزاء العلاقة بين الحياة والموت . فالحياة مهما كانت خافتة ، فإنها لا تحتوى على الموت ، كما أن الموت لا يتضمن أى لمحة من الحياة . فإحساس المرء بإزاء الشخص المريض يختلف عن إحساسه بإزائه إذا ما انحدر إلى الموت . فالمرض مهما كان عسير الشفاء ، يحمل فى قوامه بعض الصحة ، بل ويحمل بعض الأمل فى التخلص منه . ولكن لا أمل فى أن ينهض الميت من موته ، ويعود إلى الحياة . فالفقدان الذى يحس به المرء عند موت شخص عزيز إلى قلبه ، يعمل على وقوع صدمة عنيفة تهز كيانه الوجدانى ، وهى الصدمة التى تقع بين الوجود والعدم ، وانتصار العدم على الوجود ، أعنى انتصار الموت على الحياة .

ثانيًا ـ انهيار جانب من قوام المرء : فالواقع أن المرء يشتمل على جهاز « الأنا » من جهة ، وعلى جهاز « النحن » من جهة أخرى . وجهاز « النحن » يتشكّل من مجموعة الأحياء الذين يحس المرء وإياهم أنهم يشكّلون جهازًا نفسيًا متآزرًا بعضه مع بعض ، ومتكاملاً بعضه مع بعض . فإذا ما مات واحد من أحبّاء المرء ، فإن هذا يعنى انهيار جانب من جهاز « النحن » لديه . وكلما كان ذلك الشخص المائت أكثر قربًا إلى قلب المرء ، ويشكّل ركنًا أساسيًا فى حياته ، كانت فجيعته فيه أشد وأقوى ، ومن ثَمَّ فإن ما يصيب جهاز « النحن » من انهيار ، يكون أشد وطأة عليه . وبالتالى فإن الاهتياج الوجدانى والثورة العاطفية تكون عارمة .

ثالثًا ـ الشعور بالوَحْشة : فموت شخص أثير لدى المرء ، وقد اعتاد على استمرار علاقته به ، ومؤانسته له ، يُشْعره بأن الدنيا قد صارت فارغة من الناس جميعًا ، أو كأن الناس جميعًا قد ماتوا ، فلا يرى فيمن يخالطونه سوى أشباح لا تقيم بينها وبينه أى علاقة . فهو وحيد إذن فى هذه الدنيا ، وكأنه قد أُلْقى به فى صحراء جرداء ، ليس فيها ماء يرويه ، أو طعام يقتات به ، أو أنيس يؤانسه ، أو رفيق يُفْضى له بما يعتمل بدخيلته من مشاعر . فماذا يفعل إذن بإزاء تلك المشاعر المتكدسة بداخله ، ولا تجد لها مخرجًا . إنه لا يعثر إلا على تلك الثورة الهائجة التى لا تُبْقى ولا تَذَر ، والتى لا تجد لها وجهة تتجه إليها . فكأن نفسه قد تمزقت إربًا إربًا ، وصارت أشلاء محرومة من عوامل التكامل والتوحُّد .

فقد أشياء ثمينة :

بينما يعتمد المرء على العلاقات بالآخرين ، ويُشكّل وإياهم جهازًا نفسيًا هو جهاز « النحن » ، فإنه يعتمد من جهة أخرى على بعض الأشياء المادية ، التى يعتمد عليها حاليًا ، أو التى سوف يعتمد عليها فى المستقبل ، سواء كان مستقبله شخصيًا أم مستقبل ذوية . فهو وذويه كيان نفسى واحد . فإذا ما فقد المرء جانبًا هامًا من تلك الأشياء المادية ، أو من المصادر التى توفر له تلك الأشياء المادية ، فإن فَقْدها لا يقل خطورة على حالته النفسية من فقد شخص عزيز إلى قلبه .

ولعلنا نقوم بتقديم التفسيرات التى يتسنى بواسطتها إلقاء الضوء على أثر فقدان الأشياء المادية الثمينة فى العاطفة ، وإثارتها لها على النحو التالى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ـ فَقْد السَّنَد : فنحن فى حياتنا وفى علاقاتنا بالآخرين ، لا نستطيع أن نُغفِل أهمية وخطورة الجانب الاقتصادى واعتماله فى أنشطتنا المتباينة . على أننا لا نغالى فنقول إن الجانب الاقتصادى ، هو كل شىء فى حياتنا ، كما أننا لا نَغْمِط حقه ونستهين بخطورته وفاعليته فى حياتنا .

ومعنى هذا أننا إذا ما فقدنا الأشياء الثمينة ، أو إذا ما أغلقت أبواب الرزق أمام وجوهنا ، فإننا نصاب بما نسميه فقدان السَّنَد . فكما أن الطفل الصغير قد يقوم من نومه فزعًا لأنه يحس وكأنه على وشك أن يقع من فوق السرير ، كذا فإن الواحد منا إذا ما فقد شيئًا ثمينًا ، أو إذا فقد مصدر رزقه ، كأن يُفْصَل من وظيفته ، أو يشتعل حريق فى مصنعه أو متجره أو بيته ، أو إذا سطا اللصوص على بيته ونهبوا نقوده وجواهره ، فإنه يصاب بأزمة نفسية ، فتهتاج عواطفه وأشجانه ، ويحس بأنه قد صار تائهًا فى متاهة الحياة .

ثانيًا ـ الخوف من الحاجة : فثمة ما يمكن أن نسميه بعزة النفس ، وهى الحالة الشعورية التى تعنى الاستقلال إلى حد بعيد عن الآخرين ، والثقة بالنفس ، وعدم الشعور بالحاجة إليهم ، أو طلب العون منهم ، أو الاستنجاد بهم لذَبِّ خطر الجوع والعُرْى عن نفسه وعن ذويه . بيد أنه عندما يفقد المرء أشياء ثمينة من ممتلكاته ، فإن سنهمًا يصيب عزة نفسه ، ويحس بالاقتراب من حالة العوز ، ومَدِّ اليد إلى الآخرين . ومن ثَمَّ فإن ثائرته النفسية تثور ، وتهتاج عواطفه ، ويشعر بأن ناقوس الخطر قد أخذ يدق على الأبواب .

ثالثًا ـ الشعور بالغيظ : ومن الطبيعى أن يُعْمِل المرء الذى فقد أشياء ثمينة ذهنه فى الأسباب التى أدت إلى فقدها . فإذا توصل إلى

أن لصوصًا قد دبروا وخططوا لسرقتها ، فإنه يمتلئ غيظًا منهم ، وحُنْقًا عليهم . ومعنى هذا بالتالى أنه يهتاج عاطفيًا ، وتنقلب حالته النفسية من الهدوء إلى الثورة ، ومن الاسترخاء النفسى إلى التوتر والقلق والاهتياج .

التناغم الوجدانى :

قد تثور العاطفة ، لا لأن شيئًا قد أصاب المرء بسوء ، بل لأن أحدًا من أحبائه ، قد أصيب بأذى . والواقع أن التناغم الوجدانى عبارة عن انتقال المشاعر من شخص أو أشخاص تعتمل لديهم العواطف الثائرة ، إلى القوام العاطفى لدى المرء . على أن التناغم الوجدانى لا يقتصر فى الواقع على ما يعتمل من مخاوف أو أحزان أو غضب فى قلب الشخص المتناغم وجدانيًا ، بل يمتد ليشمل الجوانب الإيجابية أيضًا ، كالفرح الذى يتواكب مع النجاح ، أو الزواج السعيد ، أو الترقية ، أو التخلص من مأزق ، أو الشفاء من مرض .

وثمة مجموعة من الخصائص التى يتسم بها التناغم الوجدانى ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ نسبية التناغم الوجدانى : فالواقع أن التناغم الوجدانى يختلف فى شدته من شخص لآخر ، سواء كان مستوى شدته راجعًا إلى الصلة الحميمة بينه وبين الآخرين الذين يتناغم وجدانيًا معهم ، أم كان مَرَدُّه إلى طبيعة الشخص المتناغم وجدانيًا وتركيب شخصيته . فثمة أشخاص يتَّسِمُون بحساسية وجدانية قوية ، وأشخاص يتَّسِمُون بحساسية وجدانية متوسطة ، وأشخاص يتَّسِمون بحساسية وجدانية ضعيفة . ناهيك عن مدى قرب أو بعد الأشخاص الذين يتناغم المرء وجدانيًا معهم أو لدى بعدهم عنه . فكلما كان الشخص أو الأشخاص الذين

Looloo
www.dvd4arab.com

يتناغم المرء وجدانيًا معهم أكثر ارتباطًا وجدانيًا بهم ، فإن تناغمه الوجداني معهم يكون أقوى .

ثانيًا ـ مدى ارتباط التناغم الوجداني بالسلوك العملي : فلقد يكون التناغم الوجداني منعزلاً عن السلوك التصرفي ، كما أنه قد يرتبط به . فمشاهدة شقة أحد الجيران اشتعلت فيها النيران ، قد تثير لدى أحد الأشخاص تناغمًا وجدانيًا ، ويحزن بسبب الخسارة التي لحقت بأصحاب تلك الشقة ، ولكنه لا يحرك ساكنًا ولا يتخذ أي تصرف عملي ، فلا يتصل بشرطة الإطفاء ، ولا يقدم المساعدات إلى أصحاب تلك الشقة ، برغم وفرة المال عنده ، وما بين يديه من ثروة طائلة . وفي المقابل فإنك قد تجد شخصًا آخر ما كاد يرى الحريق مشتعلاً حتى ينهض ويشمّر عن ساعديه ويساهم بكل ما لديه من طاقة ومهارة في إطفاء ذلك الحريق .

ثالثًا ـ عمق التناغم الوجداني ومدة بقائه : فالتناغم الوجداني يتباين من شخص لآخر من حيث العمق والمدة التي يستغرقها . فعلى الرغم من عمق التناغم الوجداني عند بعض الأشخاص ، فإنه لا يستمر معتملاً في قوامهم النفسي سوى بضع لحظات قليلة . وفي المقابل فإنك قد تجد أشخاصًا لا يكون تناغمهم الوجداني عميقًا ، ولكنهم يظلون متناغمين وجدانيًا لمدة طويلة .

★ ★ ★

الفصل الرابع
التوهُّج العاطفي

العوامل الوراثية :

من المعروف أن الطفل يولد وهو يحمل المقوّمات الوراثية العديدة التي استمدها من والديه ، ومن أسلافه القريبين والبعيدين على السواء . وتلك المقومات الوراثية تكون على هيئة استعدادات ، إما أن تجد طريقها للبزوغ في سلوكه ، وإما أن تظل في حالة كمون ، ولا تخرج إلى أرض الواقع .

ومن بين تلك الاستعدادات الوراثية ، ما هو خاص بالناحية الوجدانية . فبعض الناس يكونون حاملين لطاقة وجدانية هائلة ، أكثر مما يحملونه من استعدادات عقلية ، أو من غير ذلك من استعدادات . وحيث إن تلك الطاقة الوجدانية هي التي تُصنع منها العواطف المتباينة ، فإن استعداد المرء لبلورة طاقته الوجدانية حول بعض الموضوعات الخارجية تعتبر شرطًا لإمكان بلورتها . وكلما كانت البلورات العاطفية التي تتأتى عن تبلور الوجدان حول المحاور الموضوعية المختلفة على جانب كبير من التماسك ، فإن ذلك يكون أدعى إلى ما نسميه بالتوهُّج العاطفي .

ولكن علينا أن نتعرف على خصائص ذلك التوهُّج الوجداني التي يتسم بها الشخص المتسم بهذا التوهج الوجداني الوراثي ، وأن نقدمها على النحو التالي :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ـ الإندفاع العاطفى : فالشخص المتوهّج عاطفيًا ، يكون مندفعًا فى التعبير عما يعتمل بدخيلته من عواطف محتدمة فائرة ، فهو يتعلق بالأشخاص حتى أولئك الذين لم يسبق له معرفتهم . فبمجرد مقابلتهم لأول مرة ، يأخذهم بالأحضان ويُمْطرهم بالقبلات الحارة . وهو لا يكون فى هذه الحالة مخادعًا أو منافقًا ، كما أنه لا يكون متوقعًا أن يحصل منهم على فائدة نتيجة ما يبديه لهم من حب دافق ، ومن إقبال غير متوقع بالأحضان والقبلات .

ثانيًا ـ التصرفات الحمقاء : ومن الطبيعى أن شخصًا كهذا ، يندفع فى أثناء حماسه العاطفى الذى يتفجر فى قوامه النفسى نحو اتخاذ تصرفات حمقاء لا تبقى ولا تذَر . من ذلك مثلاً تقديم الهدايا الثمينة إلى أشخاص غرباء لم يكد يتعرف عليهم إلا منذ بضع لحظات قصار . ناهيك عن التضحيات التى يمكن أن يقدمها فى سبيلهم ، حتى وإن كانوا فى غير حاجة إليها .

ثالثًا ـ التقلُّب بين الحب الشديد والكراهية الشديدة : وكما أن الشخص الذى تتبدى لديه ظاهرة التوهُّج العاطفى يندفع فى حبه نحو من يقابلهم من أشخاص حتى ولو لم تكن هناك علاقة تربطه بهم ، فإنه على النحو نفسه وبالحماسة نفسها ينصرف عنهم . ولقد يبدى الكراهية والمقت لأشخاص لم يسبق له أن قابلهم قبل ذلك . فكما أنه مندفع فى حبه ، فإنه يكون مندفعًا أيضًا فى كراهيته ، بل إنه قد يبدى الكراهية الشديدة للأشخاص الذين أبدى لهم الحب الشديد فى الموقف نفسه الذى أبدى لهم فيه حبه الدافق .

رابعًا ـ عدم تمييز الأشخاص : والشخص من هذه الفئة المتّسمة بالتوهج العاطفى الوراثى ، لا يكاد يميز بين شخص وآخر . فهو

برغم عناقه وقبلاته ، وأيضًا برغم غضبه وسخطه ، لا يكاد يميِّز بين الأشخاص الذين عانقهم وقبّلهم ، أو الذين اندفع غاضبًا نحوهم ، وساخطًا عليهم . فدخيلته تكون مسيطرة على سلوكه . والمهم لديه أن يعبر عما يضغط على جهازه النفسى ، وليس المهم أن يقوم بتحديد الأشخاص الذين يعانقهم أو يتشاجر معهم .

خامسًا ـ إمّحاء الآثار النفسية : والشخص المتوهج عاطفيًا ، لا يكاد يذكر شيئًا مما مر به من انفعالات ، أو بمعنى أصح فإنه لا يحمل فى قوامه حصيلة من الحب بازاء من أقبل عليه بكل قلبه ، كما أنه لا يحمل ضغينة تجاه من أبدى له أكبر قدر من الكراهية والحَنَق . فما يكاد يمر الموقف الذى توّهجت فيه عواطفه ، حتى ينتهى كل شىء ، ولا يتبقى من المواقف التى مر بها أى آثار تذكر . فذاكرته لا تحمل للآخرين ذكريات ، سواء كانت ذكريات إيجابية أم ذكريات سلبية .

العوامل النفسية :

نحن نؤمن بالتراكب الخبْرى ، أى أن الآثار النفسية التى تتركها المواقف المتباينة التى يمر بها المرء ، لا تتراكم بعضها فوق بعض ، ولا تتراص بعضها إلى جانب بعض ، بل تتفاعل بعضها مع بعض ، ويتأتى عن تفاعلها مركب خبْرى يأخذ فى التفاعل مع كل المؤثرات الخبْرية التى يستمر المرء فى تلقيها .

ومعنى هذا أن الشخصية تتبلور فى ضوء المركّب الخبْرى الذى تأتّى لها نتيجة التفاعلات الخبْرية المتتالية التى تبدأ منذ اللحظة الأولى التى ولدت فيها . ولكن كلما أخذ الطفل فى النمو ، فإن علاقاته الاجتماعية تأخذ فى التزايد والخصوبة ، ومن ثمّ فإن المؤثرات النفسية التى يتلقاها من الواقع البيئى الطبيعى والاجتماعى ، تزداد

Looloo
www.dvd4arab.com

أكثر فأكثر . وفى ضوء نوعيات التفاعلات الخبرية التى تتأتى له عبر مراحل عمره ، تتحدد شخصيته ، بل ويتحدد طابع جهازه النفسى ، وتتعين ملامحه وخصائصه . فالشخص الذى يقابل فى حياته مواقف حساسة وجدانيًا كثيرة ومتواترة ، يكون جهازه النفسى على جانب كبير من الحساسية والقابلية للتفجر العاطفى .

بيد أن هناك مجموعة من العوامل التى تؤثر فى القوام النفسى للمرء ، فتحمله على أن يكون على مستوى مرتفع من الحساسية ، فيصير متوهّج العواطف ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ الصدمات النفسية : فالشخص الذى يتلقى مجموعة من الصدمات النفسية ، كأن يقابل حبُّه بالنبذ والصد ، أو يُضرب أو يُهان دون توقُّع من جانبه ، أو يعاقب على خطأ أو جريرة لم يرتكبها ، أو يقابل بالهزء والسخرية من جانب الناس حيثما يوجد برغم تقديره لنفسه ولشخصيته ، أو يتهم فى فضيحة ظلمًا وبهتانًا ، إلى آخر تلك المواقف التى يتأتى عنها الإصابة بالصدمات النفسية التى تُفقِد المرء القدرة على الوثوق فى المستقبل القريب والبعيد على السواء . فشخص كهذا يكون متوهّج العواطف ومُحتدم المشاعر ، وقد أخذ ينظر بريبة وتوجس إلى كل ما يحيط به من أشياء وأشخاص ، متوقعًا الشر يصيبه من كل جانب ، ويضربه فى الصميم .

ثانيًا ـ الاضطرابات العصبية والهورمونية : ومن عوامل التوهّج العاطفى ، ما يكون قد أصاب الجهاز العصبى من اضطرابات ، وما يكون قد حدث من عدم اتزان فى إفرازات بعض الغدد الصماء .

ثالثًا ـ مجابهة موقف خطر أو موقف صعب للغاية : فمن عوامل التوهُّج العاطفى ، مجابهة المرء لموقف يهدده بالخطر على حياته أو

على حياة ذويه ، أو مجابهة موقف شديد الصعوبة ، ويشكل مأزقًا حرجًا . فالشخص الذى يقع فى أيدى مجموعة من قطاع الطرق وهو فى سيارته فى مكان خال من الناس ، يصير متوهّج العاطفة . فهو يتضرع متذللاً ومتوسلاً ، بل إنه قد يأتى بتصرفات لم يسبق له أن أبداها ، كأن يقبل أيدى المجرمين ، وكأن يبكى كالطفل الصغير ، ويضرب الأرض برجليه ويلطم خديه . وباختصار فإنه يتوهّج عاطفيًا فى ذلك الموقف ، بل إنه قد يبدى للصوص كل ود وحب ، فيأخذهم بالعناق والتقبيل وقد اضطربت نفسيته . فالخوف الذى يتملك عليه ، ويسيطر على سلوكه ، وملامح وجهه ، يقلب جميع الموازين ، فيختلط الود بالحقد ، والصداقة بالعداء ، والخوف بالمودة ، إلى آخر تلك الاضطرابات النفسية التى يعتبر التوهّج العاطفى من سماتها الرئيسية .

العوامل الاجتماعية :

هناك مناسبات اجتماعية عديدة تعتبر من العوامل التى تساعد على إحداث التوهج العاطفى ، لعلنا نقوم بتقديم أهمها فيما يلى :

أولاً ـ الوداع الأخير : فالوالدان الشيخان اللذان يودعان ابنهما الوحيد الذى اعتزم الهجرة إلى قارة بعيدة ، ولا أمل لديهما فى أن يشاهداه ، أو أن يلتقيا به مرة أخرى حتى نهاية العمر ، لا شك أن لحظة الوداع بينهما وبين ذلك الابن تكون متأججة الوجدان ، ومحتدمة العاطفة . وتكون وسيلة التعبير عن ذلك التوهّج العاطفى المعتمل فى قلبيهما ، هى الدموع الغزيرة والتنهدات العميقة ، بل إن الأمر قد يصل إلى حد الإغماء وفقدان الوعى .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ـ اللقاء غير المتوقع أو بعد طول الانتظار : وكما أن الوداع الأخير يكون مفعمًا بالتوهُّج العاطفى ، كذلك يتسم لقاء الحبيب غير المتوقع ، أو لقاؤه بعد طول انتظار ، وبعد فقدان الأمل فى لقائه . فذلك اللقاء يكون أيضًا مفعمًا بالتوهج العاطفى . وكثيرًا ما يحدث هذا بإزاء حالات المفقودين فى الحروب ، أو فى حوادث غرق البواخر أو احتراقها ، أو غير ذلك من حوادث تبئس الأهل من عودة أحبائهم إليهم بسلام منها ، ويعتبرونهم قد هلكوا ، فيحملهم يأسهم على التعلق بأمل ضئيل للغاية فى عودة أولئك المفقودين بالسلامة إليهم . فإذا استحال أملهم الضئيل إلى واقع بالفعل ، وقد فوجئوا فى ذات مساء بمن يدق جرس باب الشقة ، وإذ بهم يفاجئون بالغائب وقد عاد سالمًا ، فإن شعر رءوسهم يقف ، ويفور الدم فى عروقهم ، وتنهمر الدموع من مآقيهم ، ولا يكادون يصدقون أنهم لا يحلمون ، وأن ما يشاهدونه بأعينهم هو ذلك الشخص الغائب الذى طال انتظاره دون ما جدوى . لا شك أن توهُّج عواطفهم تكون بمثابة زلزال نفسى قد يقضى على حياة بعضهم ، أو قد يصيبهم بالانهيار العصبى أو بغير ذلك من حالات مَرَضية جسمية أو نفسية .

ثالثًا ـ تحقيق أمل طال انتظاره : فالكثير من الآمال التى يترجى المرء تحقيقها ، تكون صعبة المنال ، أو عسيرة التحقيق . فإذا ما تحقق الأمل المنتظر بغير كثير ثقة فى تحقيقه ، فإن ذلك يعمل على التوهج العاطفى . فالشخص الذى اغتصبت حقوقه ، ثم رفع دعوى قضائية ضد المغتصب ، وصدر حكم المحكمة لصالحه ، فإن السرور يعم قلبه وقلوب أحبائه ، ويكون من الطبيعى أن تتوهَّج العواطف ، وتلتقى بعضها ببعض ، وتشكل فى لقائها توهجًا عاطفيًّا جمعيًّا ، قويًّا وصاخبًا .

العوامل الاقتصادية :

واستكمالاً لما سبق أن قلناه بخصوص الحقوق المغتصبة ، فإننا نقول إن هناك مجموعة من العوامل الاقتصادية التى تتواكب مع التوهُّج العاطفى ، لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ الشبع بعد الجوع ، والرى بعد العطش : فالتائهون بالصحراء لبضعة أيام ، وقد نفد طعامهم ، ولم يعودوا يجدون الماء الذى يطفئ ظمأهم ، إذا ما عثر عليهم من يخلصهم من ورطتهم ، ويقدم إليهم الطعام والماء ، فإنهم فى اللحظة التى يحسون فيها بأنهم قد أنقذوا من هلاك محقَّق ، لا شك يتوهجون عاطفيًّا ، فيأخذون من أنقذوهم بالأحضان ، ويمطرونهم بالقبلات الحارة ، تعبيرًا عن عرفان الجميل ، والاعتراف بفضلهم عليهم ، وإنقاذ حياتهم من التضور جوعًا والتحرق عطشًا .

ثانيًا ـ تخليص المتورط من ورطته : وكذا فإن الصرّاف الذى اكتشفت لجنة جرد الخزائن ، أن عهدته المالية ناقصة ببضعة آلاف من الجنيهات ، فإن الدنيا تدور به ، وهو الذى كان يعتزم رد ذلك المبلغ الذى أخذه من الخزينة فى اليوم التالى ، وكان قد أخذه للإنفاق على إجراء عملية جراحية لزوجته بالخارج . بيد أن صديقًا له كان قد وقف على حقيقة الموقف ، فاستعد له ، وسحب من رصيده بالبنك المبلغ الذى استولى عليه صديقه من خزينة الشركة ، وقدمه إلى لجنة الجرد قبل كتابة المحضر . وبذا فإنه أنقذ صديقه من ورطته . فماذا كان حال ذلك الصراف ، وكيف كانت مشاعره نحو ذلك الصديق ؟ إن مشاعره نحوه قد تأججت واحتدمت ، وتوهجت فى قلبه عواطف الحب نحوه ، فارتمى على كتفه باكيًا بفرح وتهلل ، شاكرًا ربه الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

هيأ له مثل ذلك الصديق الشهم ، وستره من فضيحة كادت تودى بمستقبله وسمعته ، وتدفع به إلى غياهب السجن .

ثالثًا ـ القبض على اللصوص : فالصائغ الذى هاجمه بعض اللصوص فجأة ، وهو فى محله التجارى ، فقيّدوه ونهبوا جميع المجوهرات الموجودة بالمحل ، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال كان بالخزينة ، ولاذوا بالفرار . لا شك أن ذلك الصائغ أحس بعد نهب محله ، أنه قد صار واحدًا من الفقراء المُعوزين . ولقد احتدم حزنه على نفسه وعلى أفراد أسرته الذين استحالوا بين ليلة وضحاها لا يمتلكون مالاً يسترهم ، وقد فقد من رب الأسرة تعب السنين . ولكنه وهو فى خضم تلك الحالة النفسية الكئيبة ، وإذ بشرطى يستدعيه من بيته للتوجه إلى مركز الشرطة ، حيث وجد جميع مصوغاته وأمواله فى حماية رجال الشرطة الذين قاموا بواجبهم ، وقبضوا على المجرمين الذين لم يكونوا قد تصرفوا فى المسروقات بعدُ . لا شك أن عواطفه هو وأسرته قد توَّهجت فى تلك اللحظة التى ردت فيها جميع أموالهم وقد باتت فى حصن حصين ، فتسلمها وعاد يمارس نشاطه المعتاد فى محله .

العوامل السياسية :

الواقع أن بعض المناسبات السياسية تجمع المواطنين جميعًا فى وحدة متجانسة ، وكأنهم قد صاروا شخصًا واحدًا . ولعلنا نقوم فيما يلى بتقديم جانب من تلك المناسبات السياسية :

أولاً ـ سقوط نظام الحكم الفاسد : فبعض الحكومات فى الدول المتخلفة قد تكون عبارة عن عصابات تتبوأ سُدة السلطة ، لا لخدمة الشعب ، بل لامتصاص دمائه ، واغتصاب حقوقه ، ومصادرة حرياته ،

والعمل على القضاء على ملامح شخصيته . فإذا قامت ثورة وأطاحت بتلك الشرذمة المغتصبة التى لا هم لها سوى اكتناز أكبر قدر من المال لهم ولذويهم ومحاسيبهم ، وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم ، والضرب على أيدى المنادين بضرورة سيادة العدالة ، ورد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها ، فإن قيام ثورة كهذه وإطاحتها بتلك الشرذمة الحاكمة الفاسدة ، يجعلان الفرح يعم الشعب بأسره ، وقد أحس بأن غُمة قاتمة قد انزاحت من أمام أعينهم ، وأن عهدًا جديدًا سوف ينشر لواء الحرية خفّاقًا ، ويوفر الرخاء لكل أبناء الشعب ، ويقضى على مغتصبى الحقوق ، وعلى المتسلقين والمستغلين . ولا شك أن التوهُّج العاطفى يعُم الشعب وقد أخذ يحس بالإحساس نفسه ، وصار الجميع ينبضون بنبض واحد ، ويشعرون بالمشاعر نفسها ، هى مشاعر الفرح ، والتخلص من كابوس كان جاثمًا على صدورهم جميعًا بغير استثناء .

ثانيًا ـ انتهاء حرب مشتعلة الأوار : فبعد أن تنتهى الحرب ، ويتنفس الجميع الصُّعداء ، فإن التوهج العاطفى يعم الشعب الذى عانى من التقتيل ، ومن الضائقة المالية ، ومصادرة الحرية ، وتجنيد كل قوى الشعب لمجابهة الأعداء . صحيح أن دموعًا غزيرة تذرف فى تلك المناسبة على شباب وقعوا صرعى فى ساحة الوغى . ولكن النغمة الغالبة هى نغمة الخلاص من الويلات التى كانت سوف تستمر رانية على أعناق الشعب . فالشهداء لا يُنْسون ، ولكنهم كانوا قربانًا كريمًا قُدّم من أجل حماية الوطن ، وقد كان بفضلهم انتهاء الحرب بالانتصار على الأعداء ، ناهيك عن الفرح بعودة المنتصرين الذين لم يصبهم أذى من لهيب الحرب . فالفرح يختلط فى قوام الشعب فى تلك المناسبة بالحزن . وسواء كان الفرح هو المعتمل فى القلوب أم الحزن ،

Looloo
www.dvd4arab.com

فإن الناس فى الحالتين يحسون بالتوهُّج الوجدانى ، فتسود نغمة وجدانية واحدة ، وكأنها مركَّب وجدانى من الفرح والحزن جميعًا ، أشبه ما يكون بالمركَّب الكيميائى الذى لا تفترق عناصره بعضها عن بعض ، بل يبدو ذلك المركب النفسى الذى يسيطر على الجميع ، وقد توهَّجت مشاعرهم وتأجَّجت .

ثالثًا ـ بعد وقوع الكوارث الطبيعية : فبعد وقوع الزلازل ، وسقوط السيول وانتشار الفيضانات والزوابع ، فإن أوتار القلوب تهتز فى تناغم وجدانى . فبعد الزلزال وسقوط المنازل ، تحتدم عواطف السكان الذين لم تصب بيوتهم بأذى ، ويأخذون فى ترجمة مشاعرهم المحتدمة ، فى سلوك عملى على هيئة تبرعات ومساندات ، فيتطوع المتطوعون بدمائهم ، ويتبرع الأغنياء بأموالهم ، ويسهر الأطباء والحكيمات إلى جانب المصابين يضمِّدون جراحاتهم ويواسونهم .

★ ★ ★

الفصل الخامس
البرود العاطفى

نقص التبلور الوجدانى :

حيث إن العاطفة تتأتى عن تبلور الوجدان حول موضوع ما ، فإن النقص فى ذلك التبلور الوجدانى ، يعنى قلة عدد الموضوعات التى يحس المرء بالانعطاف إليها ، أو ضعف العاطفة التى تتأتى نتيجة تبلور الوجدان حول الموضوعات . وفى الحالتين فإن المرء لا يكون متعلقًا بالموضوعات التى تحيط به ، سواء كانت أشياء ، أم كانت كائنات حية ، أم كانت أشخاصًا ، أم جماعات .

ولعلنا نلقى الضوء على العوامل التى تؤدى إلى نقص التبلور الوجدانى ، فنحددها على النحو التالى :

أولاً ـ بِنْية الشخصية : فالواقع أن الإنسان مدين للوراثة التى جُبِل عليه من جهة ، ومدين للمؤثرات البيئية التى أحاطت به وأثَّرت فيه منذ طفولته حتى اللحظة الراهنة التى يحياها من جهة أخرى . فمن الخطأ أن نُغفِل أهمية الوراثة والتكوين البِنْيوى الذى فطر عليه المرء . فهناك أشخاص لديهم بِنْية وراثية ضعيفة من حيث القدرة على التبلور الوجدانى . ولقد نشبِّه الشخص الذى لا يبدى تعلقًا بالآخرين بالبطارية الضعيفة التى لا تستطيع أن تُشغِّل محرك السيارة . ولقد نقول إن الناس يتفاوتون فى مدى ما جبلوا عليه من قدرة على التبلور الوجدانى . فبعضهم يتمتع بقدرة كبيرة بإزاء ذلك ، وبعضهم متوسط

www.dvd4arab.com

القدرة ، وبعضهم الثالث ضعيف من حيث قدرته على بلورة وجدانه حول الموضوعات المتباينة .

ثانيًا ـ الانعزال ونقص العلاقات : فلقد يكون النقص فى التبلور الوجدانى راجعًا إلى الفقر فى العلاقات التى تقوم بين المرء وبين المحيطين به من أشخاص ، وكذا النقص فى الأشياء التى يستخدمها ، أو بسبب النمطية العلائقية بينه وبين ما يحيط به من أشياء وأشخاص ، وعدم الخروج عن إطار تلك النمطية . وبتعبير آخر الشعور بالسأم لضيق النطاق البينى وبخاصة فى بواكير العمر .

ثالثًا ـ التشتت وسرعة التنقل : ومن عوامل النقص فى التبلور الوجدانى الذى ينجم عنه البرود الوجدانى ، ما يقوم به المرء من تحرك مستمر وسريع من مكان لآخر ، بحيث لا تتوافر له المدة الكافية لحدوث التبلور الوجدانى . فإذا حدث مثل هذا التبلور الوجدانى حول شىء أو شخص ، فإنه سرعان ما يذبل لعدم نضجه بالقدر الكافى ، ولأن المرء يترك ذلك الشىء أو ذلك الشخص إلى أشياء أخرى أو إلى أشخاص آخرين . ولعلنا نعزو البرود العاطفى الذى يتّسم به أهل المدن الصاخبة بكثرة الحركة والتنقل ، إلى هذا العامل ، أعنى تشتت الوجدان قبل أن يتسنى له أن يتبلور بالقدر الكافى حول الموضوعات التى ما تكاد تحيط بالمرء حتى يهجرها إلى غيرها . فلا تتاح الفرصة لتكوين بلورات وجدانية متينة حول ما يقع عليه أو يتعامل معه .

رابعًا ـ كثرة المشاغل : وعلى النحو نفسه ، فإن الهموم المتزايدة والمتلاحقة التى تشغل بال المرء ، تعمل بلا شك على عدم تبلور الوجدان بالمتانة الكافية حول الأشياء والأشخاص . فالطاقة النفسية التى تستخدم فى عملية التبلور الوجدانى حول الموضوعات المتباينة

محدودة ، ولا يمكن تكريس القدر الكافى منها للنهوض بالبلورة الوجدانية حول المشاغل الكثيرة ، وبالتالى فإن الشخص المهموم أو المثقل بالأعباء الكثيرة ، يكون عرضة للإصابة بالبرود الوجدانى .

خامسًا ـ القيم السائدة : ومن العوامل التى تؤدى إلى نقص التبلور الوجدانى ، ما يشيع بالمجتمع من قيم . فمن الملاحظ أن القيم السائدة اليوم بمعظم المجتمعات المتحضرة ، هى قيم مادية . ومعنى هذا أن التبلور الوجدانى قد اتجه إلى الماديات ، بينما انسحب من نطاق الروحانيات ، بل ومن نطاق العلاقات الوجدانية الشخصية . وبتعبير آخر فإن كل شىء صار يُقيَّم فى ضوء ما يمكن أن يتأتى عنه من منفعة . ومن ثَمَّ فإن التبلور الوجدانى صار تبلورًا موقفيًا . فما يكاد الموقف الذى حدث فيه التبلور الوجدانى ـ أو بدأ فى الحدوث ـ ينقضى ، حتى يتحول وجدان المرء إلى موقف تال . وهكذا دواليك . وواضح أن عدم ثبات البلورات الوجدانية بل تحطمها أو تحللها ، يؤدى إلى ظاهرة البرود العاطفى .

ضَعف الذاكرة :

قد يحدث البرود العاطفى نتيجة ضعف الذاكرة . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض الحالات التى تكون فيها ذاكرة المرء ضعيفة وأثر ذلك فى ظاهرة البرود العاطفى :

أولاً ـ العامل الوراثى : فالواقع أن أجهزة الجسم المتباينة تختلف بعضها عن بعض فيما يتعلق بالقوة والضعف ، والكفاءة الممتازة والكفاءة المتوسطة والكفاءة الضعيفة . فالطفل يولد بإمكانات جسمية واستعدادات نفسية لا قبل له بها ، ولا دخل للعوالم البيئية بإزائها . فمهما كُفلت له المؤثرات البيئية المواتية ، فإنها لا تستطيع أن ترتفع

www.dvd4arab.com

بالمستويات الضعيفة التى جبلت عليها بعض مقوماته الجسمية والنفسية . بيد أن ثمة بشائر تشير إلى إمكان التدخل فيما ورثه المرء من مقومات وراثية ، وذلك عن طريق هندسة الوراثة . بيد أن الطريق ما يزال طويلاً أمام هذه التكنولوجيا البيولوجية الجديدة التى ما تزال فى مرحلة المهد . وعلى أية حال ، فإن الشخص الذى ورث ذاكرة ضعيفة ، يمكن أن يؤثر ضعف ذاكرته فى حالته العاطفية . ومن ثَمَّ فإنه يكون معرضًا للإصابة بالبرود العاطفى .

ثانيًا ـ ضمور المخ : وثمة عامل آخر يعمل على ضعف الذاكرة ، هو تعرُّض المخ للضمور . وهذا يحدث فى الغالب فى الشيخوخة المتأخرة التى تسمى الهَرَم . فالشيخ الهرم يكون معرَّضًا فى الغالب لضمور المخ ، وبخاصة المنطقة المسئولة عن التذكر . ولكن هذا لا يعنى أن ضمور المخ مقصور على الشيوخ الهرمين ، ذلك أن المرء فى أى عمر ، يمكن أن يصاب بضمور فى المخ ، أو فى بعض أجزاء منه . فإذا ما أصيب الجزء الخاص بالذاكرة بالضمور ، فإنه يأخذ فى نسيان ما سبق له معرفته ، بل إنه قد ينسى أيضًا ملامح وجوه الأشخاص الذين كان على معرفة وثيقة بهم ، أو كانوا من المقربين جدًّا منه ، بل حتى زوجته وأولاده .

ثالثًا ـ الصدمات العصبية : فالشخص الذى يصاب بضربة على رأسه ، أو الذى يتعرض لارتفاع ضغط الدم فجأة نتيجة تعرضه لموقف مثير لأعصابه ، أو الذى ينخرط فى حالة غضب أو حزن شديدة ، فإنه يكون معرضًا لفقدان الذاكرة ، وبالتالى فإنه يصاب بالبرود العاطفى . ذلك أنه يفقد من مخزوناته التذكرية العقلانية ، كل ما يتعلق بها من أحاسيس وجدانية ، ومن عواطف كانت متبلورة حول موضوعات أو أشخاص معينين .

رابعًا ـ الإرهاق المستمر : ومن عوامل ضعف الذاكرة ، ما قد يتعرض له المرء من إرهاق مستمر فى العمل ، وبخاصة إذا كان ذلك العمل محفوفًا بالمشاكل والمضايقات والإحباطات . فالتاجر المنهمك فى تجارته ، ثم يكتشف فجأة أنه قد خسر مبلغًا كبيرًا من المال ، أو يصله نبأ اشتعال حريق مدمِّر فى مخزنه ، فإنه قد يفقد ذاكرته ، ولقد يكون ذلك الفقد نتيجة اعتمال عوامل لا شعورية ، فيهرب بذلك من الموقف الصعب الذى لا يكاد يتحمله ، ويترتب على هذا فقدان الروابط العاطفية ، والإصابة بالبرود العاطفى .

خامسًا ـ الانقطاع المكانى والزمانى : ومن عوامل ضعف الذاكرة ، انفصال المرء عن الأشخاص الذين كان يتعامل معهم ويعرفهم معرفة جيدة ، وقد كانت بينه وبينهم صداقة وعشْرة ومودة . فالواقع أن عدم مداومة الاتصال بين الناس بعضهم وبعض بسبب الانتقال إلى مكان بعيد لمدة طويلة ، ينتهى إلى النسيان العقلانى ، والنسيان الوجدانى أيضًا . فإذا ما التقى بمن كان على صلة وثيقة بهم بعد فترة طويلة ، فإنه لا يكاد يتذكر ملامحهم ، وبالتالى فإنه يكون بارد الوجدان بإزاء أولئك الذين لا يعرفهم ، ولا يتحقق من شخصياتهم ، وقد نسى متى قابلهم وأين كان لقاؤه معهم .

الكبت اللاشعورى :

من المعروف أن (سجموند فرويد) قد كشف النقاب عن أهمية اللاشعور فى حياة المرء ، مؤكدًا أن اللاشعور يلعب دورًا أهم من الدور الذى يلعبه الشعور ، وأن الكثير مما ننوطه بالشعور ، يجب أن يناط باللاشعور . ويعتبر بمثابة المخزن الذى تحزَّن به الخبرات المكدّرة التى لا يرغب المرء فى الاحتفاظ بها فى ذاكرته .

Looloo
www.dvd4arab.com

ومما لاشك فيه أن هناك صلة وثيقة بين النشاط اللاشعورى وبين الخبرات الوجدانية . وبالتالى فإن ثمة صلة وثيقة بين اللاشعور وبين البرود العاطفى ، لعلنا نحدد معالمها على النحو التالى :

أولاً ـ ترسيب الإهانات : فالشخص الذى يهان بتواتر من شخص يحبه ، قد لا يقابل إهاناته بإهانات مثلها ، بل يبقى على علاقته ومودته له ، ولكن الواقع أن الإهانات التى أصابته تترسب فى لاشعوره . فكلما تكدّست تلك الإهانات فى لاشعور ذلك الشخص ، فإنها تخنق الحب القائم بينه وبين ذلك الشخص الذى أهانه مرارًا وتكرارًا ، والذى كان يحمل له الحب فى بداية الأمر . ولكن كلما تزايل ذلك الحب بينهما ، فإن النتيجة الحتمية المترتبة على ذلك ، هى البرود العاطفى بينهما .

ثانيًا ـ صدمات الفشل : لقد يكون المرء متعلقًا وشغوفًا بأحد الأنشطة أو الهوايات . ولكنه يفشل أو يصدم ولا ينجح فى مسعاه . من ذلك مثلاً ما يحدث بالنسبة لكثير من الشباب المحبين للأدب . فالواحد منهم يقرض الشعر أو يكتب القصة وهو متفائل بنجاحه وتبريزه فى مجال التأليف الأدبى . وبعد أن يقوم بإعداد الكتاب الأول وتجهيزه للنشر ويقوم بعرضه على أحد الناشرين الذى يرفضه لأنه فى رأيه لا يرقى إلى مستوى الكتب الجديرة بالنشر والتوزيع ، فإنه يصدم صدمة نفسية تصيب هوايته وحبه للأدب فى الصميم . وقد يترتب على تلك الصدمة عزوف ذلك الشاب عن الأدب طوال عمره ، بل إنه يصير بارد العاطفة أو حتى ممتلئًا كراهية ومقتًا للأدب . وتفسير هذا التحول من الحماس للأدب إلى كراهيته ، أو انطفاء الحماس والاستحالة إلى حالة البرود العاطفى تجاه كل ما يتصل بالأدب من قريب أو من بعيد ، هو أن الصدمة النفسية التى وجهت

إليه ، قد استقرت فى لا شعوره ، فكلما حاول أن يفيق منها ، فإن لا شعوره يقف له بالمرصاد ، ويحول بينه وبين المشاركة فى الكتابة الأدبية ، وبذا يستحيل من الحماس إلى الفتور والبرود العاطفى تجاه ما كان يقبل عليه ويتعشقه من نشاط أدبى قراءة وكتابة .

ثالثًا ـ صدمات الحب : والشىء نفسه ينسحب إزاء الحب بين الجنسين . فالشاب الذى يقدر الحياة الزوجية كل التقدير ، ويتمنى أن يتزوج ويكوّن أسرة وينجب أطفالاً يرعاهم ، ولكنه كلما تقدم أو اقترب من إحدى الشابات اللائى يعجب بهن ، فإنها تشيح عنه بوجهها ، أو توجه إليه ألفاظًا جارحة ، أو تبدى له كل احتقار . فكل شابة قامت بصده ، كانت تقتل فى قلبه حبه وتقديره للمرأة وتقديسه للحياة الزوجية . ومع الوقت فإن جميع عواطفه تجاه النساء عمومًا ، بل وتجاه فكرة الزواج تتبخر ، ولا يطيق فكرة الارتباط بأى امرأة طوال حياته ، بل إن نظرته إلى الجنس الآخر ، صارت نظرة فاترة مفعمة بالبرود العاطفى .

التمركز حول الذات :

إن الشخصية السوية تتسم بالانفتاح على الواقع الخارجى من جهة ، والبصر بما يعتمل بدخيلتها من جهة أخرى . فالعلاقة بين الخارج والداخل يجب أن تكون فى حالة توازن ، فلا يطغى الخارج على الداخل ، كما لا يطغى الداخل على الخارج .

وحيث إن المرء يقيم علاقات وجدانية ، ويبلور وجدانه حول أشياء وأشخاص خارج نطاقه الذاتى ، فإن قطع الوشائج بما ومن قام بإقامة علاقات وجدانية معهم ، والانكفاء على الذات ، إنما يشير إلى ما يمكن أن يتأتى عن ذلك من برود عاطفى . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض

Looloo
www.dvd4arab.com

بعض الحالات التى تحدث فيها تلك القطيعة بين المرء وبين الواقع الخارجى ، والتقوقع على الذات :

أولاً ـ قهر الكبار : فالشخص الذى ابتلى بوالدين كانا يصدّانه فى طفولته كلما تكلم ، ويأمرانه بسرعة النطق ، أو يستهزئان به ، ويسخّفان ما يقوله ، أو يتهمانه بالكذب ، أو يتصيدان الأخطاء الكلامية التى يقع فيها ، إنما يكره الاتصال بالناس ، ويفضل الانغلاق على نفسه . وعلى الرغم من أنه كان مقبلاً على أسرته والناس عامة بقلب منفتح ، فإن تلك المواقف التى فتّت فى عَضُده وأحرجته ، قد جعلت حبه للناس أجمعين ينضُب ، وبالتالى فإن شخصيته صارت توصف من جانب من يتعاملون معه بأنها تتسم بالبرود العاطفى .

ثانيًا ـ التدليل والتمييز : فالشخص الذى كان مدللاً فى طفولته ، ونشأ على أنه يشكّل مركز اهتمام الأسرة ، أو أنه يمتاز عن إخوته وأخواته ، فإنه ينشأ محبًا لنفسه ، وقد صار متمركزًا حول ذاته . وبالتالى فطالما أن شيئًا لا يصيبه بأذى ، بل يصيب غيره ، فإنه لا يكترث ولا يحرك ساكنًا . فلكأن الدنيا بأسرها قد خلقت من أجله ، وليس لأحد حقوق فيها بأى حال من الأحوال .

ثالثًا ـ القهر والإذلال : وعلى نقيض التدليل والتمييز ، نجد القهر والإذلال . فالشخص الذى نشأ فى أسرة بها زوجة أب كانت تكيل له الاتهامات المغرضة ، وتذيقه العذاب أشكالاً وألوانًا ، ينشأ على عدم الثقة فى أحد ، بل قد يجد لديه دوافع لا شعورية للتعويض عما فاته من رفاهية والتذاذ . ومن ثَمَّ فإنه صار لا يترك فرصة لإمتاع نفسه إلا واقتنصها ، حتى ولو تطلب ذلك ، الجَوْر على حقوق الآخرين ونهب حقوقهم . وبتعبير آخر فإن ذلك الشخص يكون متمركزًا حول ذاته ، ومتسمًا بالبرود العاطفى ، فلا يحب إلا نفسه ، ولا يسعى إلا لتحقيق

مآربه الشخصية ، ضاربًا عُرْض الحائط بمصالح الآخرين ، وحتى إذا أمكن تحقيق أهدافه مع إعاقة أهداف الآخرين والحيلولة بينهم وبين تحقيقها ، فإنه لا يتوانى عن وضع العراقيل فى طريقهم فيتعطل تحقيق أهدافهم .

الشعور بالدونية :

فالشخص الذى يحس أنه أقل شأنًا من الآخرين ، وأن شعوره بالدونية قد سيطر عليه وساد علاقاته بمن حوله ، فإنه قد يتنحى إلى التصرفات الرعناء التى يَذُب بها عن نفسه ذلك الشعور بالدونية ، ويتخذ موقفًا من المواقف التالية :

أولاً ـ التعاظم على الآخرين : فبدلاً من أن يبدى فى سلوكه ما ينم عن شعوره بالدونية ، وأنه أقل مقامًا أو علمًا ممن يقابلهم من شخصيات ، فإنه يقلب الآية ، ويأخذ فى إبداء الاحتقار لهم ، وتسفيه آرائهم ، وانتقادهم فى كل ما يصدر عنهم من تصرفات . ويؤكد فى كل مناسبة لمن حوله أنه مباين لمعارفه وأصدقائه ، وقد ينسج حول أسرته قصصًا خيالية تشير إلى الأصل العريق ، كما يذكر الكثير عن أمجاد أجداده .

ثانيًا ـ الضرب فى طريق الجريمة : فقطاع الطرق والإرهابيون واللصوص يحس معظمهم بالدونية . ولكن شعورهم هذا لابد من مقاومته من دخائلهم . بيد أنهم لا يتخذون الطريق الإيجابى فى مقاومة ما يعتمل فى أوصالهم من شعور بالتخلف عن الآخرين ، وأنهم أقل منهم فى نظر المجتمع ، بل يتخذون الطريق المعكوس . فهم ينخرطون فى طريق الجريمة الذى يحمل زملاءهم فى الإجرام إلى الإشادة بهم ، بل والافتخار بمزاملتهم لهم . ولكن أهم ما تتسم به

Looloo
www.dvd4arab.com

شخصياتهم هو ذلك البرود الوجدانى الذى يحيل قلوبهم إلى حجارة لا تنبض بالرحمة . فلا يحسون بالألم الذى يعتصر من يغيرون عليه ويقتلونه أو يسلبون ممتلكاته .

ثالثًا ـ الانتقام من أصحاب الفضل عليهم : والعجيب فى أمر الذين استولى عليهم الشعور بالدونية ، أنهم يعلنون الحرب الشعواء ضد من كان لهم الفضل فى تنشئتهم أو توصيلهم إلى ما توصلوا إليه من مكانة رفيعة . فالواحد من أولئك الذين تعتمل الدونية فى قلوبهم ، يرغبون فى القضاء على كل صاحب فضل عليهم ، سواء كان ذلك بقتلهم جسديًا أو بقتلهم أدبيًا . والخلاصة أن شخصًا كهذا يكون قد اتسم بالبرود العاطفى ، لأنه لا يأبه بمشاعر وآدمية من ينكّل بهم أو يهدر حقوقهم أو يشهّر بهم .

★ ★ ★

الفصل السادس
التقلُّب العاطفى

التقلُّب بين الحب والكراهية :

من الحقائق السيكولوجية المعروفة ، أن الحب والكراهية بمثابة وجهين لعملة واحدة . فكل إنسان يحمل فى قوامه الحب والكراهية فى آن واحد . وبتعبير آخر ، فإن الكراهية هى اختباء الحب ، كما أن الحب هو اختباء الكراهية ، أى أن الحب عندما يبزغ إلى الشعور ، فإن الكراهية تختبئ فى اللاشعور . وعندما تبزغ الكراهية إلى الشعور ، فإن الحب يختبئ فى اللاشعور .

والتقلُّب بين الحب والكراهية ، يعنى تبادل المقاعد بين الشعور واللاشعور بتواتر ، أعنى فى فترات متقاربة . فالموضوع الواحد يحظى بحب المرء فى يوم ، وفى اليوم التالى تحتل الكراهية مكانه بإزاء الموضوع نفسه . ولعلنا نلقى الضوء فيما يلى على الأسباب التى تعمل على حدوث ذلك التقلُّب بين الحب والكراهية بإزاء الموضوع نفسه :

أولاً ـ النقص فى نمو الشخصية : فالواقع أن هناك قوامًا ذاتيًا للشخصية تتحدد معالمه مع نمو المرء بدءًا بالطفولة . ونقصد بالنمو ، النمو الجسمى ، والنمو الوجدانى ، والنمو العقلى ، والنمو الاجتماعى . فإذا ما تخلّف المرء عن بلوغ المعدل السوى فى نموه ، وبخاصة نموه

Looloo
www.dvd4arab.com

الوجدانى ، فإنه يكون خاضعًا إذن خضوعًا أعمى للمؤثرات والضغوط الخارجية . وحيث إن تلك المؤثرات والضغوط ، متنوعة ومتغيِّرة ، فإنه يتذبذب بين المؤثرات والضغوط المتضاربة . فيخضع مرة لدواعى الحب ، ويخضع مرة أخرى لدواعى الكراهية .

ثانيًا ـ نمط الشخصية : فعلم نفس الأنماط قد أماط اللثام عن أن الناس ينخرطون فى إطار عدد معين من الأنماط . ومن تلك الأنماط ما يتصف بقوة الشخصية وتبلورها ، ومنها ما يتصف بضعف الشخصية وميوعتها . والشخصية الضعيفة المائعة تكون عرضة للتقلُّب بين الحب والكراهية لأتفه الأسباب أو حتى بغير سبب على الإطلاق .

ثالثًا ـ الإسقاط : ومن عوامل التقلُّب بين الحب والكراهية ما تنحو إليه الشخصية من إسقاط على الواقع الخارجى . فإذا كان المرء فى حالة انسجام مزاجى ، فإنه يرى الأشياء والناس جديرين بالحب . أما إذا كان فى حالة تنافر نفسى ، فإنه يرى الأشياء والناس لا يستحقون منه سوى الكراهية .

رابعًا ـ القابلة الشديدة للإيحاء : ومن أسباب التقلب بين الحب والكراهية ، شدة قابلية المرء للإيحاء . فمن يبدون له أمارات الود ، يقبل عليهم بكل قلبه ، ويحبهم بكل جوارحه . ومن لا يبدون له تلك الأمارات أو يكونون جادين أو مقطِّبى الجبين لأسباب شخصية ، فإنه يكرههم . والشخص الواحد إذا استهوته ملامحه يُحبه ، وإن لم تستهوه ملامحه ، فإنه يبدى له الكراهية .

خامسًا ـ انخفاض مستوى الذكاء : ومن العوامل التى تساعد على التقلُّب بين الحب والكراهية ، انخفاض مستوى الذكاء ، فالشخص

المتخلف عقليًا ، يكون عرضة للتقلب بين الحب والكراهية بإزاء الأشياء والأشخاص فى تواتر سريع .

التقلب بين التفاؤل والتشاؤم :

الواقع أن المرء لا يولد متفائلاً أو متشائمًا ، بل إن المؤثرات والمواقف التى يلقاها فى الحياة وفى سياق العلاقات الاجتماعية ، هى التى تصبغه بصبغة الشخصية المتفائلة ، أو بصبغة الشخصية المتشائمة . فالشخص الذى لا يقابل فى حياته صدمات وصعوبات كثيرة ، يكون شخصية متفائلة . أما الشخص الذى يصطدم بالواقع المؤلم ، أو يقع فى المآزق ، ويتعرض للمشكلات الكأداء ، ويلْقى من العذاب أشكالاً وألوانًا ، فإنه يضْحى شخصية متشائمة . وبتعبير آخر فإن المرء يولد حياديًا ، لا هو بالمتفائل ولا هو بالمتشائم . ولكن الحياة وسياقها هما اللذان يحددان ملامح شخصيته .

والتقلُّب العاطفى بين التفاؤل والتشاؤم يحدث ويصير سمة من سمات الشخصية ، إذا كانت كفة التفاؤل وكفة التشاؤم متساويتين . فالشخصية التى تقف موقفًا وسطًا بين التفاؤل والتشاؤم ، تكون شبيهة بالميزان ذى الكفتين . فلدى مقابلة أو موقف يبشر بالخير ، فإن كفة التفاؤل لديه تكون هى الكفة الراجحة . وعلى العكس من هذا فإن أى موقف يثلم مشاعر ذلك الشخص ، فإن كفة التشاؤم هى التى ترجُح . وبتعبير آخر فإن الشخصية البيْنية التى لا توصف بأنها شخصية متفائلة أو بأنها شخصية متشائمة ، هى التى تكون عرضة للتقلُّب بين هذين الاتجاهين المتضادين .

وهناك فى الواقع مجموعة من العوامل المساعدة على انتحاء الشخصية إما إلى التفاؤل وإما إلى التشاؤم ، وهى على النحو التالى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ـ الاستعداد الشخصى : فعلى الرغم من أننا نقول إن التفاؤل والتشاؤم سمتان مكتسبتان من الواقع البيئى الاجتماعى الذى يحيط بالمرء ، فإننا نقرر فى الوقت نفسه أن ثمة استعدادات نفسية لا يمكن الإغضاء عنها ، أو إنكار وجودها . فكل ما يتبدى فى سلوك المرء من مظاهر سلوكية مكتسبة ، له أساس فطرى . ولعلنا نعمّم هذه النظرة بإزاء الوجود كله . فنقول إنه لولا ما يتسم به الخشب من قابلية للاحتراق ، ما كان ليحترق إذا ما تعرض للنار . وقل الشىء نفسه بإزاء الإنسان . فلولا استعداد المرء لأن يكون متفائلاً أو متشائمًا ، لما كانت للعوامل البيئية فاعلية فى صياغة سلوكه .

ثانيًا ـ التنشئة منذ الطفولة : فالمناخ الاجتماعى المحيط بالمرء منذ طفولته الباكرة ، يؤثر إلى حد بعيد فى صياغة الشخصية . فالطفل الذى ينشأ فى أحضان أسرة متفائلة ، ينشأ فى الغالب على التفاؤل . أما الطفل الذى ينشأ فى أحضان أسرة متشائمة ، فإنه ينشأ فى الغالب على التشاؤم .

ثالثًا ـ النظرة المستقبلية : فالواقع أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية ، بتطلعه إلى المستقبل . فإذا كانت نظرة المرء إلى المستقبل مفعمة بالتوقعات السارة وبالنجاح المرتقب ، فإنه ينحو إلى التفاؤل ، على عكس النظرة إلى المستقبل التى تكون مشحونة بالتوقعات الرديئة ، فإن المرء المتلبس بها يكون ناحيًا إلى التشاؤم .

رابعًا ـ المؤانسة والطمأنينة : ومن العوامل المساعدة على الانتحاء إلى التفاؤل أو الانتحاء إلى التشاؤم ، مدى توافر المؤانسة والطمأنينة له . فكلما كان المرء متمتعًا بالمؤانسة والطمأنينة ، فإنه يكون ناحيًا إلى التفاؤل . أما إذا كان محرومًا من وجود من يؤانسه ويبعث الطمأنينة فى قلبه ، فإنه يكون ناحيًا إلى التشاؤم .

خامسًا ـ مدى قوة جهاز « النحن » : فلدى كل شخص جهاز نفسى هو جهاز « الأنا » وجهاز نفسى آخر هو جهاز « النحن » . فكلما كان جهاز « الأنا » هو المهيمن على القوام النفسى للمرء ، فإن ذلك يساعد على إشاعة التشاؤم فى قلبه . أما إذا كانت الهيمنة منوطة بجهاز « النحن » ، فإن المرء يكون متنحيًا إذن إلى التفاؤل .

الانقلاب من الحماس إلى الفتور :

نستطيع تقسيم الناس إلى ثلاث فئات : فئة تتحمس للقيام بأنشطة تستهويهم ، وتستمر فى حماسها ، وفئة تتسم بالفتور وعدم الحماس لشىء ، بل تركن إلى التقاعس . أما الفئة الثالثة ، فهى الفئة التى تنقلب من الحماس إلى الفتور . فتجد الواحد من هذه الفئة يتحمس للقيام بمشروع ما ، ثم ما يكاد يُعد نفسه للبدء فى تنفيذه حتى تهبط همته ، ويبرد حماسه ، ويتقاعس عن الاستمرار فى تنفيذ ما سبق أن تحمس له ، وشمر ساعده للنهوض به .

وهناك فى الواقع مجموعة من العوامل التى تساعد على انخراط المرء فى هذه الفئة الثالثة ، أعنى فئة المنقلبين من الحماس إلى الفتور ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً ـ نقص الطاقة الحيوية : فالواقع أن أى نشاط يضطلع به المرء ، بحاجة إلى قدر معين من الطاقة يبذلها فى سبيله . فإذا هو لم يجهز القدر الكافى منها ، فإنه يحس بالعجز عن الاستمرار فى النهوض بمشروعه ، ومن ثَمّ فإنه يركن إلى الفتور وهبوط الهمة والتخلى عن الاستمرار فى التنفيذ .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ـ البدء فى العمل بغير تخطيط : فبعض الناس عندما يطرأ على أذهانهم القيام بمشروع ما ، فإنهم يبدءُون فورًا فى التنفيذ دون أن يخططوا له . ومما لاشك فيه أن أى نشاط لا يخضع للتخطيط مآله الفشل . وهناك كثير من الأشخاص يتحمسون للقيام بمشروعات جيدة ، ولكنهم لدى بدئهم بحماس فيها دون تخطيط ، فإنهم يجدون أنفسهم يتخبطون ، ولا يستبينون طريقهم ، ولا يتبينون الخطوات التى يجب أن يخطوها . ومن ثمَّ فإنهم يتراجعون عن مشروعهم ويُقفلون عائدين إلى ما كانوا عليه قبل التفكير فيه .

ثالثًا ـ التخطيط الرديء : ولقد يقوم المرء بالتخطيط لمشروعه قبل البدء فيه ، ولكن تخطيطه يكون تخطيطًا فاسدًا . فهو لا يحدد الخطوات الواجب اتخاذها ، أو أنه لا يرتب الخطوات التنفيذية كما ينبغى أن ترتَّب ، أو أنه يضع خطة طموحة أكثر من إمكاناته الحقيقية ، إلى غير ذلك من أخطاء تعتور التخطيط .

رابعًا ـ سيطرة فكرة جديدة : فلقد يتحمس المرء للقيام بمشروع مّا ، ثم ما يكاد يبدأ فى اتخاذ الخطوات التنفيذية به ، حتى تواتيه فكرة جديدة تتعلق بمشروع آخر ، فيتحمس له ، بينما يضمحل حماسه للمشروع الذى بدأه ، ومن ثم فإن الفتور يخيم على قلبه بإزاء مشروعه الأول . ومن الناس من تتوالى الأفكار المتوهجة فى أذهانهم بإزاء مشروعات كثيرة ، فكل فكرة تالية خاصة بمشروع جديد ، تطفىء الحماس للمشروع الذى سبقه ، وبالتالى فإنهم يركنون إلى الفتور . وقد تزايلت الحماسة من قلوبهم لما كانوا متحمسين له قبل ذلك .

خامسًا ـ الأحداث الطارئة : ومن العوامل التى تعمل على انطفاء الحماسة فى قلب المرء بإزاء المشروعات التى اعتزم القيام بها ، وقوع أحداث طارئة لم يكن يتوقعها ، سواء كانت أحداثًا مفرحة ، أم أحداثًا محزنة أو مخيفة ، فالواقع أن الشخص الذى يكون متحمسًا لنشاط ما ، إذا ما فوجئ بوقائع تعمل على تشتيت طاقته الوجدانية ، فإن حماسه يفتر ، ويركن إلى الفتور وهبوط الهمة .

التقلُّب بين التضحية والأنانية :

ومن بين حالات التقلُّب العاطفى ، حالة التقلُّب بين التضحية والأنانية . فهناك شخصيات لا يمكن وصفهم بأنهم مضحُّون ، كما لا يمكن وصفهم بأنهم أنانيون . ذلك أنهم فى بعض المواقف ، يوصفون بأنهم شخصيات مضحية ، بينما يوصفون فى مواقف أخرى بأنهم شخصيات أنانية . فلقد يكون الواحد من هذه الفئة مستعدًا لتقديم روحه فداء لزوجته وأولاده ، ولكنه فى وقت آخر يبدو شخصًا أنانيًا يبخل على زوجته وأولاده بحيث لا يكاد ينفق على مأكلهم ومشربهم ، أو على سداد المصروفات المدرسية برغم وفرة المال بين يديه . ولقد نجد أشخاصًا يضحُّون بالمال الكثير بصدد أنواع معينة من الإنفاق ، بينما يبخلون بشكل مضحك فلا ينفقون بضعة قروش فى موقف آخر يستلزم تقديم المساعدة والتضحية البسيطة .

ولعلنا نقوم فيما يلى بتقديم العوامل التى تؤدى إلى ظهور هذا النوع المتقلِّب من السلوك بين التضحية والأنانية أو الشح فى الإنفاق :

أولاً ـ ترقيع الشخصية : فثمة شخصيات اكتسبت الخبرات من الواقع الاجتماعى الذى نشأت به ، وكان اكتسابها لتلك الخبرات اكتسابًا تفاعليًا ، أى أن كل خبرة جديدة كانت تتفاعل مع المركَّب

Looloo
www.dvd4arab.com

الخبرى الذى تأتى فى قوامها . ولكن من جهة أخرى ، فإن هناك شخصيات يمكن نعتها بأنها شخصيات مُرقّعة ، أى أن الخبرات التى اكتسبتها بمثابة قطع متراصة بعضها إلى جانب بعض فى قوامها . فتلك الشخصيات ربما تكون إحدى خبراتها تحث على التضحية ، بينما تكون خبرة أخرى مجاورة لها تحث على الشح والأنانية . وكل خبرة من هاتين الخبرتين تطفو على سطح سلوك ذلك الشخص فى وقت أو آخر . ففى يوم تكون الهيمنة للخبرة المتعلقة بالتضحية ، وفى اليوم التالى تكون الهيمنة للخبرة المتعلقة بالأنانية أو الشح . وبذا يبدو التناقض بين الحماس للتضحية وبين الحماس للأنانية .

ثانيًا ـ الصراع بين الشعور واللاشعور : فالخبرات الطافية على سطح الشعور ، قد تكون منحازة إلى التضحية . ذلك أن المرء يكون ذا وفر ، وحالته المالية ميسّرة . ولكن فى المقابل فإن الخبرات المترسّبة فى لاشعوره ، تحثه على عدم البذل ، وذلك لأن شبح الفقر المدقع الذى كان محيطًا بأسرته فى طفولته ، يحذره من تقديم بعض ما عنده من مال إلى الآخرين ، ويحثه على الحرص عليه واكتنازه ، خوفًا من مغبّة الأحداث والظروف غير المواتية التى سوف يحملها له المستقبل . وبذا فإن المرء يكون فى أحد الأيام تحت سيطرة الشعور الذى يحثه على التضحية ، بينما يكون فى يوم آخر تحت رحمة اللاشعور الذى يحثه على الأنانية والشح .

ثالثًا ـ الصراع بين النظرة الآنية وبين النظرة المستقبلية : وكما أن الصراع قد ينشأ فيما بين الشعور واللاشعور ، فإنه قد ينشأ أيضًا فيما بين الواقع الآنى والتوقع المستقبلى . فالشخص المُتقلّب فيما بين التضحية والأنانية ، يكون خاضعًا لذلك الصراع الذى ينشأ بين حالته الراهنة ووضعه المريح ماليًا ، مما يجعله خليقًا بأن يقدم التضحيات

المالية من أجل الآخرين ، وبين ما يتوجس منه ويتوقع حدوثه فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد من فقر مدقع ، ومن الحاجة إلى كل قرش يمكن أن يضحى به اليوم .

رابعًا ـ الصراع بين المثل العليا وبين الواقع : ومن الصراعات النفسية التى يمكن أن تعتمل فى قلب المرء ، ذلك الصراع الذى يحتدم بين ما يضعه نصب عينيه من مثل عليا تتعلق بالتضحية ، وبين الواقع الذى يشاهده من حوله ، وهو الواقع الذى لا يشجعه على تقديم أى تضحية لأى إنسان . فخبرته السابقة تؤكد له أن كل من قدم إليه معروفًا ، وكل ما بذله من تضحيات من أجله ، قد انقلب عليه شرّ منقلب ، وأن من أحسن إليه يحقد عليه ، ومن ساعده على الخروج من مأزق ألمّ به ، يتمنى له أن يقع فى مأزق أشد عنتًا مما وقع فيه . فشخص هذا حاله فى التقلب بين الاستمساك بالمثل العليا التى تحض على التضحية ، وبين الخبرات التى مرت فى حياته وحياة الآخرين ، إنما يكون معرّضًا للتقلب بين التضحية والأنانية . فتجده فى بعض المواقف وقد تغلبت المثل العليا وكان لها السيطرة فى قيادة حياته ، وفى توجيه سلوكه ، وفى مواقف أخرى مشابهة ، تكون الخبرات المتشائمة تجاه الناس هى المسيطرة والموجهة لسلوكه . وبذا يتبدى التقلب العاطفى فى شخصيته ، وفيما يُجلّى عنه سلوكه .

التقلب بين التدين والفجور :

ومن نوعيات التقلب العاطفى ، التقلب بين التدين والفجور . فتجد الشخص المنتمى إلى هذه الفئة متدينًا فى أحد الأيام بعمق للغاية ، إلى درجة تقرب من تدين القديسين ، بينما تجده فى يوم آخر فاجرًا ومستهترًا ومرتميًا فى أحضان الفسق والمجون . فما التفسيرات التى

Looloo
www.dvd4arab.com

يمكن أن تلقى بالضوء على حالة شخص كهذا ؟ إننا نستطيع أن نقدم مجموعة من التفسيرات على النحو التالى :

أولاً ـ التعادل بين ثنائية الخير والشر : فمن المعروف أن النزعة نحو الخير ، والنزعة نحو الشر ، تعتملان فى قوام المرء . ولكن الناس ينقسمون بإزاء هاتين النزعتين إلى ثلاث فئات : الفئة الأولى تكون لديها نزعة الخير راجحة على نزعة الشر ، والفئة الثانية تكون لديها نزعة الشر هى الراجحة على كفة الخير . أما الفئة الثالثة ، فإن هاتين النزعتين تكونان لديها فى حالة تعادل . ولكن ذلك التعادل لا يعنى التوقف عن الاتجاه نحو الخير أو الاتجاه نحو الشر ، بل يعنى أن الرُجْحان يقيَّض لإحدى النزعتين فى يوم ، بينما يقيَّض للنزعة الأخرى فى يوم آخر . ومن ثَمَّ فإن الشخص الذى يتحقق لديه هذا التعادل يكون متقلبًا عاطفيًا بين كفتى الخير والشر .

ثانيًا ـ ضعف الإرادة : فمن المعروف أن السلوك يسير وفق ثلاث خطوات : خطوة عقلانية ، وخطوة وجدانية ، وخطوة إرادية . وهناك من الناس من يدركون بأذهانهم معانى الخير فهمًا دقيقًا ، ثم إنهم يتحمسون بقلوبهم لعمل الخير . ولكنهم لا يخطون الخطوة الثالثة ، أعنى خطوة الإرادة . فعلى الرغم من اقتناعهم وإيمانهم بالخير ونبذهم للشر بعقولهم وقلوبهم ، فإنهم لم يحصلوا على التدريبات الإرادية التى تكفل لهم ترجمة ما يعقلونه ، وما يرغبون فيه إلى واقع سلوكى . ومن ثَمَّ فإنهم يكونون عرضة للتقلُّب بين كفتى الخير والشر حسب الظروف والمواقف . فإذا هم تجنَّبوا مصادر الإغراء لاقتراف الشر ، فيكون فى مقدورهم إذن اتباع طريق الخير . ولكن إذا أحاط بهم ما يغريهم لانتهاج طريق الشر ، فإنهم ينثنون أمامه ، ولا يجدون فى إرادتهم طاقة للمقاومة .

ثالثًا ـ الخضوع للمتسلِّطين : فهناك شخصيات لديها قدرة تأثيرية كبيرة فى الآخرين ، أو قل إن لديهم مواهب كتلك المواهب التى يمارسها المنومون المغنطيسيون . وبتعبير آخر فإن أولئك الأشخاص يتمكنون من ممارسة الإيحاء والتأثير التقليدى فيمن يتسنى لهم السيطرة وفرض الوصاية السلوكية عليه من ذوى النفوس المستضعفة . فنجد الواحد من هذه الفئة يفرض ما يشاء من ألوان سلوكية على بعض الناس الذين يجد أن بمقدوره قيادهم كما يشاء . ومن هؤلاء تجار المخدرات وتجار الرقيق الأبيض . وإذا أنت تساءلت مع واحد من فئة الخاضعين ، عن الأسباب التى جعلته مطْواعًا بهذا الشكل لإرادة غيره ، ولماذا لا يستثمر إرادته الشخصية فى مقاومته ، فإنه يجيبك بأنه عاجز عن المقاومة ، وأن مجرد تحديق ذلك الشخص المسيطر فى عينيه ، يحيله إلى دُمْية يفعل بها ما يريد . والشخص من هذه الفئة عندما يكون بمنأى عن ذلك الشخص الذى سيطر على إرادته ، يكون شخصًا خيِّرًا ، ولكن ما يكاد يلتقى بقاهر إرادته ، حتى ينثنى أمامه راكعًا فى محراب شيطانه اللعين .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السابع
انطفاء العاطفة

الخيانة الزوجية :

إن الأساس فى العلاقات الجنسية هو اتحاد شخصين عاطفيًا بعضهما مع بعض ، أو اتحادهما عاطفيًا وجسميًا معًا . فالواقع أن الأصل فى نشأة البشرية هو انبثاق حواء من آدم ، أى أن آدم وحواء كانا شخصًا واحدًا . وبعد خروج حواء من قوام آدم ، فإنها صارت مستمرة فى الحنين إلى الأصل الذى انبثقت منه ، وخرجت من قوامه . وكذا فإن آدم ظل يحس بالحنين إلى تلك المرأة التى كانت قوامًا من قوامه ، وجزءًا لا يتجزأ من جسده . وكلما استعصى على حواء الرجوع إلى أصلها ، فإن الحنين إلى ذلك الأصل كان يشتد ويأخذ بها كل مأخذ . وكذا فكلما استعصى على آدم إعادة نصفه المفقود إليه ، فإنه كان يألم أشد الألم ، ويتحرق شوقًا إلى إكمال ما نقص فى قوامه ، لأن حواء عندما انتزعت من جسمه ، سحبت معها قوامًا آخر من قوامه ، هو القوام الوجدانى . فجسم آدم مشوق إلى جسم حواء ، ووجدان آدم مشوق إلى وجدان حواء .

وآدم أورث أولاده ما كان يعتمل فى قوامه الجسمى من حنين إلى جسد حواء ، كما أورثهم ما كان يعتمل فى قوامه الوجدانى من شوق إلى الاتحاد بوجدان حواء . وهكذا صار الرجال عبر العصور مشوقين إلى النساء ، وصار التلهف على الاتحاد بين

الطرفين شركة بينهما . فكما أن الرجال يتلهفون للاتحاد بالنساء ، كذا فإن النساء يتلهفن للاتحاد بالرجال .

ومن الطبيعى أن يتصارع الرجال بينهم وبين بعض للاستيلاء على النساء ، وأن يتصارع النساء بعضهن مع بعض للارتباط بالرجال والاتحاد بهم . وقد تكلفت البشرية الكثير بسبب ذلك التنافس إلى حد القتل أو التشويه ، ويحتدم الصراع بين رجل وآخر إذا ما رغب كل منهما فى الاتحاد بامرأة بالذات ، كما يحتدم الصراع بين امرأة وامرأة أخرى إذا ما رغبت كل منهما فى الارتماء فى حضن رجل بالذات ، والاتحاد به .

بيد أن رسالات السماء قد وضعت نظمًا تعمل على الحد من ذلك الصراع ، فاستنت شريعة الزواج . فلم تعد المسألة مسألة نزوات شخصية ، أو رغبات جنسية طارئة ، بل صار الزواج يعنى الديمومة وعدم الانفصال طالما أن الطرفين على قيد الحياة .

ولكن هل التزم الرجال بشرائع السماء ، وعقدوا الإخلاص لزوجاتهم . وهل التزمت النساء بتلك الشرائع السمائية ، وعقدن الإخلاص لأزواجهم ؟ الواقع أن هذا غير صحيح . والصحيح أن بعض الرجال يظلون مخلصين لزوجاتهم ، وبعض النساء يظللن مخلصات لأزواجهن . ولكن من المؤكد أن الخيانات الزوجية كانت وسوف تظل موجودة عبر العصور . ذلك أن الجاذبية الجنسية كثيرًا ما تنطفئ بعد الزواج ، ومع الاعتياد واستمرار اللقاء بالمعاشرة اليومية . ومن ثمّ فإن الخائنين من الرجال يتطلعون إلى التجديد الجنسى ، وكذا أيضًا تفعل الخائنات من الزوجات .

Looloo
www.dvd4arab.com

وسواء كانت الزوجة زوجها ، أم كان الزوج زوجته ، أم ظلا وفيين بعضهما لبعض ، فإن الغالبية العظمى من الزيجات محفوفة بانطفاء العاطفة بعد أن كانت محتدمة الاشتعال قبل الخطوبة وفى أثنائها . فالعلاقة الجنسية شبيهة بالعلاقة بالطعام . فبعد الشبع يزهد المرء فيما كان متلهفًا على تناوله من طعام . وإذا استمر المرء على تناول نوعية واحدة منه ، فإنه ينفر منه ولا يُقْبل عليه . وفى حالة اكتشاف أحد الطرفين خيانة الطرف الآخر له ، فإن البقية الباقية من تعلقه به تنطفئ . ناهيك عما يمكن أن يتواكب مع ذلك الانطفاء من انتقام ، سواء بالقتل أم بالتشهير أو بإقامة علاقات آثمة مع الجنس المقابل .

الانحرافات الأخلاقية :

يحسن بنا أن نقوم بتحديد المقصود بالانحرافات الأخلاقية التى تعمل على انطفاء العاطفة تجاه أولئك الذين ينخرطون فى تلك الانحرافات ، فنجد أن تلك الانحرافات يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً ـ الانحرافات الجنسية : فالشخص المنحرف جنسيًا قد يتمثل انحرافه فى عدم تركيز عواطفه الجنسية فى شخصية واحدة من الجنس المقابل لجنسه ، بل يكون موزّعًا بين عدد كبير من النساء ، إذا كان المنحرف جنسيًا من الرجال ، أو يكون موزعا بين عدد كبير من الرجال إذا كان المنحرف جنسيًا من النساء . ولقد يتمثل الانحراف الجنسى فى الميل جنسيًا إلى الجنس نفسه الذى ينتسب إليه . فالرجل يتعشق الرجال ، والمرأة تتعشق النساء . وقد يكون الانحراف جنسيًا متمثلاً فى مزاولة العادة السرية . فحتى بعد الزواج ، فإن

بعض الأزواج يستمرون فى ممارسة تلك العادة ، وكذا تفعل بعض الزوجات . وقد يكون الانحراف الجنسى متمثلاً فى سرعة القذف بالنسبة للرجل ، أو التوصل السريع إلى النعاظ بالنسبة للمرأة ، وقد يكون الانحراف الجنسى متمثلاً فى التقزز والنفور والشعور بالندم بعد ممارسة الجنس . ومن الطبيعى أن تعمل جميع تلك الانحرافات الجنسية على انطفاء العاطفة الجنسية التى كانت قائمة بين الزوجين .

ثانيًا ـ سرعة الغضب والعدوان : ومن الأسباب التى تعمل على انطفاء العاطفة ، انتشاح المرء بسرعة الغضب وما يتواكب معه من عدوان على المحيطين به ، سواء بالشتائم ، أم بالضرب وما يمكن أن يتأتى عنه من جراح أو عاهات . فالكثير من عواطف الحب والإعزاز والتعلق القلبى والإخلاص المكين ، يأخذ فى الانطفاء نتيجة ما يبديه الطرف المحبوب من سرعة فى الغضب والعدوان . ولقد تنتهى بعض حالات الزواج بالانفصال نتيجة إصابة الزوج بالسادية التى تحمله على الالتذاذ بتوقيع الإيذاء الجسدى والنفسى على زوجته .

ثالثًا ـ التبذير أو البخل : ومن الانحرافات الأخلاقية ما يمكن أن يتسم به الزوج أو الزوجة من تبذير أو من بخل . والواقع أن التبذير أو البخل لا يقاسان بالأرقام التى تشير إلى الإنفاق ، بل فى ضوء الدخل . وبتعبير آخر فإن نسبة المنصرف إلى الدخل هى التى تحدد ما إذا كان الشخص مبذرًا أو بخيلاً . ناهيك عن الموضوع الذى يتم الإنفاق بصدده . فلقد تجد أشخاصًا ينفقون ببذخ فى أشياء تافهة أو ضارة ، بينما يبخلون فى الإنفاق بإزاء مواقف أو ضرورات تحتم الإنفاق . فالزوج الذى يكتشف أن المرأة التى ارتبط بها ليست حكيمة فى الإنفاق ، بل مبذرة أو بخيلة ، أو إذا اكتشفت الزوجة ذلك الانحراف الأخلاقى فى زوجها ، فإن ذلك يعمل بلا مناص على انطفاء العاطفة بينهما .

Looloo
www.dvd4arab.com

تضارب المصالح :

ومن عوامل انطفاء العاطفة ، ما ينشأ من تضارب المصالح بعضها وبعض . فلقد تجد صديقين حميمين يعملان كزميلين فى مؤسسة واحدة ، وقد تم ترشيحهما للترقى إلى وظيفة أعلى ، ولكن لابد من اختيار أحدهما لاحتلالها دون الآخر . فمن الطبيعى أن كلاً منهما يؤمل فى الحصول على الترقية . وبتعبير آخر فإن كلا منهما صار ينافس الآخر على تلك الوظيفة المرموقة . وبعد أن رقى إليها أحدهما دون الآخر ، فإن العاطفة التى كانت متأججة بينهما تنطفئ ، بل إن الموظف الذى لم يُرق ، قد يحمل الكراهية لذلك الزميل الذى حظى بالوظيفة المرموقة ، وقد ينسج الروايات ضده ويشيعها بين الزملاء .

وهناك فى الواقع مجموعة من الحالات غير هذه الحالة التى ذكرناها تتضارب فيها المصالح ، وما يترتب على ذلك التضارب من انطفاء العاطفة على النحو التالى :

أولاً ـ المصالح المالية : وهى التى تتعلق بالمال الذى يحصل عليه المرء من مصدر ما . ومن الشائع أن تحدث الخلافات الأسرية بسبب الميراث . فالأخ يطمع فى إرث أخواته بحجة أن زوج الأخت هو شخص غريب عن الأسرة ، وهو الذى سوف يتمتع بذلك الإرث ، ولا يصح أن يستمتع به . وكذا الحال بإزاء سداد الديون أو المستحقات المالية . فكثير من الناس يقترضون المال ، ولكنهم يحسون بالتبرم الشديد لدى سداد ما اقترضوه .

ثانيًا ـ استعارة الأشياء : والكثير من الناس على النحو نفسه يستعيرون أشياء مثل الكتب وشرائط الفيديو والأدوات المنزلية ،

ولكنهم يتناسون ردها إلى أصحابها . وبالتالى فإن الشخص الذى فقد تلك الأشياء يحس بالضيق والتبرم تجاه ذلك الشخص الذى وعد برد تلك الأشياء التى استعارها ، ولكنه لم يف بوعده . ومعنى هذا أن حبه للشخص الذى استعار ما استعاره ولم يرده قد انطفأ .

ثالثًا ـ الخداع والتدليس : فالتاجر الذى يُدلس على الزبون ، أعنى إخفاء العيوب الموجودة بالسلعة ، إنما يكون قد ربح مالاً لا يستحقه ، وبالتالى فإن مصلحة المشترى تكون متضاربة مع مصلحة البائع . فإذا كان ذلك التاجر من الأقرباء أو من الأصدقاء الذين يُكن لهم المرء المودة والتقدير ، فإنه ينقلب عليه شر منقلب ، وقد انطفأت عاطفة المودة والتقدير له فى قلبه .

انقطاع الصلة :

ومن عوامل انطفاء العاطفة قطع الوشائج القائمة بين المرء وبين الذين كانت بينه وبينهم صلات متينة . ولعلنا نستعرض فيما يلى الحالات التى يتم فيها قطع الوشائج :

أولاً ـ تلاشى النشاط المشترك : فعندما يكون هناك نشاط مشترك بين شخصين أو أكثر ، فإن العلاقات النشاطية تكون مفعمة فى الغالب بعلاقات وجدانية . فالكثير من الصداقات قد ولد وترعرع فى نطاق العمل المشترك بين الأطراف المشتركة فيه . ولكن إذا ما انتهى ذلك النشاط المشترك ، كأن ينتقل الموظفون إلى أماكن أخرى بعيدة ، أو عندما يحال بعضهم إلى المعاش ، فإن العاطفة التى كانت متأججة بينهم تأخذ فى الانطفاء . صحيح أن ثمة مقاومة نفسية فى محاولة للإبقاء على تلك العاطفة . ولكن مهما كانت المحاولات المبذولة ، فإن العاطفة التى كانت قائمة بينهم تأخذ فى الخفوت والانطفاء عاجلاً

Looloo
www.dvd4arab.com

أم آجلاً . ولعلنا نعمم القول فنقول إن عاطفة الحب وأيضًا عاطفة الكراهية تأخذان فى الذبول بعد الافتراق بعيدًا عن المحور النشاطى الذى كان المشتركون فيه يلتفون حوله .

ثانيًا ـ الزواج وإنشاء أسرة جديدة : فالأولاد والبنات بعد أن يكبروا وينشئ كل واحد منهم أسرة جديدة ، ويستقلون عن الأسرة الأم ، فإن العاطفة التى كانت موجهة ومركّزة فى تلك الأسرة الأم تتوزّع فيما بينها وبين الأسرة الجديدة التى قام كل منهم بإنشائها ورعاية مصالحها . وأكثر من هذا فإن نصيب الأسرة الجديدة من العاطفة يستمر فى التزايد شيئًا فشيئًا ، بينما لا يبقى للأسرة الأم سوى قدر قليل للغاية من تلك العاطفة ، أو ربما تنطفئ العاطفة الموجهة إليها تمامًا .

ثالثًا ـ الانقطاع عن الهواية المفضلة : وحتى بالنسبة للهوايات التى يتعشقها المرء ، فإنه إذا ما انقطع فترة طويلة عن ممارستها ، فإن عاطفته نحوها تنطفئ . فلاعب كرة القدم مثلاً إذا ما انقطع عن التردد على النادى الذى ينتمى إليه لسبب أو آخر ، فإن عاطفته وتعلقه به يأخذ فى الذبول والانطفاء شيئًا فشيئًا إلى أن يصير غير مبال بالهواية التى كانت تملأ عليه حياته .

رابعًا ـ عدم تجديد الأهداف : فالواقع أن الحياة عبارة عن تيار مستمر فى السريان . فإذا ما انقطع سريان ذلك التيار ، ولم يقم المرء بتجديد أهدافه ، فإن اهتمامه العام بالحياة وتعلقه بها ينضب . وهذا ما يحدث بالنسبة لكثير من المسنين الذين يفقدون ـ بعد الإحالة إلى المعاش ـ القدرة على تجديد أهدافهم التى يتوخون تحقيقها . ومن ثمّ فإن تعلقهم بالحياة ذاتها يأخذ فى الذبول والانطفاء ، فالزهد فى الحياة والنظر إليها على أنها لغو فارغ لا يحمل أى قيمة ، يحدث نتيجة

انطفاء العاطفة نحو الواقع المحيط بالمرء . فكل شىء يحيط به ، لا يحمل قيمة فى نظره ، بل إن الطعام ذاته لا يحمل المذاق الطيب الذى كان يحس به قبل انخراطه فى هذه الحالة من الجمود وعدم تجديد الأهداف .

خامسًا ـ الانقطاع عن الجنس الآخر : فالشخص الذى ينعزل عن معاشرة الجنس الآخر أو مزاملته أو التعامل مع أفراده لمدة طويلة ، يفقد العاطفة نحوه . فالرهبان الذين يعتكفون فى الأديرة لمدة طويلة تمتد إلى سنوات ، يفقد الجنس قيمته فى عقولهم . وحتى إذا طرد الراهب من ديره لسبب أو آخر بعد قضاء سنوات كثيرة بذلك الدير ، فإنه لا يجد لديه الرغبة فى الزواج ، أو فى إقامة أى صلة بأفراد الجنس اللطيف . ذلك أن قيمة التعلق الجنسى تفقد قيمتها ، أو قل إن النشوة الجنسية تنطفئ مع مرور الأيام لديه ، وبخاصة أنه قد أخذ عبر تلك السنوات يؤكد فى نفسه النبو عن العلاقات الجنسية ، فانطفأت بذلك الرغبات الجنسية لديه تمامًا أو إلى أبعد حد ممكن .

انطفاء الانتماءات :

إننا عبر مراحل حياتنا بدءًا بالطفولة ، ومرورًا بالمراهقة والشباب والكهولة وانتهاء إلى الشيخوخة ، ننخرط فى سلسلة من الانتماءات . فنبدأ بالانتماء إلى مرحلة الحضانة ، ثم إلى المرحلة الابتدائية ، ثم إلى المرحلة الثانوية ، فالجامعة ، فالمؤسسات التى نعمل بها . ناهيك عن الانتماءات الاجتماعية . فالمسلم ينتمى إلى المسجد وجماعة المصلين به ، والمسيحى ينتمى إلى الكنيسة وجماعة المصلين بها . وقل الكثير عن الانتماءات العديدة التى ننخرط فيها ، والتى ينطفئ الكثير منها أيضًا .

Looloo
www.dvd4arab.com

وانطفاء الانتماءات يحدث نتيجة مجموعة من العوامل التى نستطيع استعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ مراحل النمو : فكلما كبر المرء ، فإنه يخرج من نطاق انتمائى ما إلى نطاق انتمائى آخر ، فللمرء فى مرحلة الطفولة انتماءاته التى تتباين عن الانتماءات التى ينخرط فيها فى المراهقة . وبعد أن ينمو إلى الشباب فإنه يترك الكثير من انتماءاته التى كان منخرطاً فيها فى المراهقة ، وينخرط فى انتماءات جديدة صالحة لمرحلة الشباب . وقل الشىء نفسه بالنسبة لمراحل العمر التالية .

ثانياً ـ الاهتمامات : ولكل شخص اهتمامات معينة تتباين كثيراً أو قليلاً عن انتماءات غيره من أشخاص . ولكن الاهتمامات وإن كان الكثير منها يظل معتملاً فى حياة المرء ، ويستحوذ على قدر كبير من وقته ، فإن الانتماءات التى يوجه إليها تلك الاهتمامات تتباين . فصاحب الاهتمامات الثقافية قد ينتمى إلى الكلية التى تشبع نهمه من الثقافة التى يحبها ، ثم يتوجه بتلك الاهتمامات إلى الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون ، أو قد يعكف على الكتابة وينقطع عن المؤسسات التى كان ينتمى إليها قبلاً ، ويتجه بالانتماء إلى دور النشر التى تقوم بنشر ما يقوم بتأليفه أو ترجمته .

ثالثاً ـ الانتماءات السياسية : فالكثير من الانتماءات السياسية تنعدم أو تتغير بالنسبة للمرء . فلقد يختلف مع قادة الحزب الذى ينتمى إليه ، ومن ثمّ فإنه قد ينشئ لنفسه حزبًا قائمًا برأسه كما فعل مكرم عبيد عندما انفصل عن حزب الوفد وأنشأ حزب الكتلة الوفدية . وبذا فإنه حوّل انتماءه من حزب الوفد إلى حزب الكتلة الذى قام بإنشائه . ومن الناس من كانوا فى شبابهم منتمين إلى أحزاب يسارية ، ولكنهم

تحولوا منها إلى أحزاب يمينية أو هجروا السياسة تماماً وانتموا إلى مؤسسات دينية أو اجتماعية .

وهناك مجموعة من العوامل التى تؤدى إلى انطفاء الانتماء وانسحاب العاطفة منها وتركيزها فى انتماءات أخرى مباينة لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ أسباب ثقافية : فالشخص الذى ينتقل من مرحلة تعليمية إلى مرحلة تعليمية أعلى ، أو الذى ينتقل من مدرسة إلى مدرسة أخرى ، إنما يكون قد عمل على انطفاء انتمائه إلى المدرسة الأولى وتركيزها بإزاء الثانية .

ثانيًا ـ أسباب اقتصادية : فلقد يترك المرء المؤسسة التى يعمل بها ويلتحق بمؤسسة أخرى قد تكون فى بلد آخر أو فى قطر آخر . وبذا ينطفئ انتماؤه الأول ، ويركز عاطفته فى الانتماء الآخر .

ثالثًا ـ أسباب اجتماعية : فالشابة التى تنتقل من أسرة أبيها ووالدتها ، لتعيش بعد الزواج مع أسرة مستقلة ، إنما تكون قد حوّلت انتماءها من أسرتها الأصلية إلى الأسرة الجديدة التى انخرطت بها .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثامن
العقل والعاطفة

هل العقل والعاطفة متكاملان ؟ :

لقد يذهب البعض إلى أن العلاقة بين العقل والعاطفة علاقة تناقض ، بينما يعتقد فريق ثان إلى أن العلاقة بينهما هى علاقة تضاد ، ويعتقد فريق ثالث أن العلاقة بينهما هى علاقة تكامل ، والتناقض كالوجود وعدم الوجود . والتضاد كالأسود والأبيض ، والتكامل كعلاقة الإبصار بالسمع .

فالفريق الذى يذهب إلى أن العلاقة بين العقل والعاطفة هى علاقة تناقض ، يؤكد أفراده أن العاطفة هى قوام شرير مغروز فى قوام المرء . ذلك أن الشخص النموذجى هو ذلك الشخص الذى يستعين بعقله لا بعاطفته ويحتكم إليه فى جميع الأمور . فالعاطفة كالشر الذى يتناقض مع الخير ، ولا توجد نقطة وسط بينهما . فالمثل الأعلى الذى ينبغى أن يتوخاه المرء فى حياته ، هو أن يُخلص نفسه من العواطف تمامًا ، وأن يسلك فى حياته بعقله الخالى من أى انحيازات عاطفية على الإطلاق .

أما الفريق الذى يذهب إلى أن العلاقة بين العقل والعاطفة هى علاقة تضاد ، فإنه يعتقد أن لا تناقض بين هذين المقوّمين ، بل هناك تضاد بينهما فحسب ، فالعاطفة تلعب دورًا فى هذا التضاد ، هو دور

التخفيف من غُلُواء العقل . فكما أننا نقوم بالتخفيف من المادة الحرّيفة وذلك بإضافة مادة أخرى تعمل على تخفيف شدة مذاقها اللاذع ، كذا فإننا فى حياتنا اليومية نخفف من غُلُواء العقل ومن حدّته بما نضيفه إليه من عاطفة . فالعاطفة وإن كانت مضادة للعقل ، فإنها تعمل على تطويعه وتليينه ، وذلك لأن المرء إذا استعان بالعقل فحسْب وحكّمه فى جميع أموره ، فإنه يفقد بالتأكيد ما كان يتمتع به من سعادة . خذ مثالاً لذلك بالذكاء الخارق . فالشخص الذى يكون على مستوى مرتفع جدًا من الذكاء ، لا يستطيع أن يحقق التوافق الاجتماعى مع الناس الذين يتعامل معهم ، إلا إذا خلط نشاطه العقلانى المرتفع جدًا بشىء من العاطفة ، حتى يتسنى له أن ينجح فى التعامل مع الناس المحيطين به من جهة ، وحتى لا يحس بالاغتراب عنهم من جهة أخرى . ولكنه إذا أصر على ألا يتعامل معهم إلا بالمنطق الخالى من أى عاطفة ، فإنهم سوف يتهمونه بالجنون ، ويكون شأنه كشأن من يصر على ألا يتحدث فى حياته اليومية إلا باللغة العربية الفصحى حتى مع الأميين كالباعة الجائلين . فهم لا يستطيعون التفاهم معه ، ومن ثَمّ فإنهم يضحكون منه ، ويتهكمون عليه ، ويتهمونه بخفة العقل أو بالغطرسة الفارغة . فتخفيفه من الفصحى بخلطها بالعامية ، يعمل على تضييق التفاوت الشديد بينه وبين الناس الأميين وأشباه الأميين . ناهيك عن خلطه المنطق بالعاطفة فى تعامله معهم ، وبالتالى فإنه يحقق التواؤم فى حياته معهم ، ويكون بمستطاعه أن يقيم بينه وبينهم قنطرة من التفاهم والتجانس .

Looloo
www.dvd4arab.com

وإذا كان هذا هو شأن الفنة التى تؤمن بالتضاد وليس بالتناقض بين العقل والعاطفة ، فإن الفنة التى تؤمن بالتكامل بين هذين الطرفين ينحو أفرادها إلى الاعتقاد فى أن للعقل وظائفه ، وللعاطفة وظائفها المباينة ، ولكن بينهما تضامنا وتكافلا ، كما هو الحال بين البصر والسمع فى تضامنهما وتكافلهما . فعلى الرغم من أن للعينين وظيفة مباينة لوظيفة الأذنين ، فإنهما يتكاملان فيما بينهما لتحقيق أهداف مشتركة . فالمسألة ليست مجرد التخفيف من حدة العقل ، بل هى مسألة تباين الوظائف المنوطة بكل منهما ، ولكنه تباين مشمول بالتكامل والتكافل . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض الجوانب التى يتكامل فيها العقل والعاطفة :

أولاً ـ عند الانفتاح على الواقع الداخلى : فالمرء عندما ينغلق على ذاته ـ كما هو الحال عند القيام بالاستبطان Introspection ـ فإنه يكون متعاملا فى هذه الحالة بعقله وعواطفه معا ، وليس بعقله فقط ، أو بعواطفه فقط . وبتعبير آخر فإنه يكون محققا التكامل فيما بين عقله ووجدانه ، وقد عمد إلى سبر أغوار نفسه ، وتفحصها والوقوف على مكنوناتها ، واستبطان ما يعتمل فى قوامه النفسى .

ثانيًا ـ عند الانفتاح على الواقع الخارجى : وكما أن الفكر والوجدان يتكاملان عند الانكفاء على دخيلة المرء ، كذا يصح القول بإزاء الانفتاح على الواقع الخارجى سواء باستقبال مدركات بصرية أو سمعية أو غير ذلك من مدركات حسية ، أم بالتصدير الخبرى كأن يتناول المرء قلمه ، ويقوم بكتابة ما يعن له . ففى الحالتين : أعنى حالة الاستقبال الخبرى ، وحالة التصدير الخبرى ، فإن المرء يستخدم عقله وعواطفه معا بطريقة متكاملة .

ثالثًا ـ خلال أحلام اليقظة : فالشخص الذى ينخرط فى أحلام اليقظة ـ مهما كان سنه أو جنسه أو مستواه الثقافى ـ ومهما كانت قيمة أحلام اليقظة التى يسبح بخياله فيها ، فإنه لا يعمل فيها عقله فحسب ، أو عواطفه فحسب ، بل يعمل عقله وعواطفه فى تلك الأحلام ، بحيث يتكاملان بعضهما مع بعض . وبالمناسبة فإننا نقول إن أحلام اليقظة ذات مستويات متباينة . فمن أحلام اليقظة ما هو رفيع المستوى ، ومنها ما هو منحط المستوى . فالكثير من الأعمال العظيمة بدأت فى ذهن من قاموا بتلك الأعمال على هيئة أحلام يقظة ، وكذا فإن الجرائم التى اقترفها المجرمون والخارجون على القانون والمعايير الاجتماعية ، قد تولدت فى أذهانهم أول ما تولدت على هيئة أحلام يقظة ، لعب فيها فكرهم وعواطفهم أدوارا تكاملية .

القوام المحايد :

ذهب وليم جيمس James, William (١٨٤٣ ـ ١٩١٠) ومن بعده برتراند رسل Russell, Bertrand (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) إلى أن الوجود فى جوهره ليس مادة أو عقلا ، بل هو قوام محايد ، لا هو مادة ولا هو عقل ، وإنما العقل والمادة كلاهما اشتقاقان من ذلك القوام المحايد . ونحن فى هذا المقام نستخدم المفهوم نفسه المتعلق بالقوام المحايد ، ولكن ليس بإزاء العقل والمادة ، بل بإزاء العقل والعاطفة .

فنحن نعلم أن الأساس فى القوام البشرى ، هو القوام البيولوجى ، ومن هذا القوام ينبثق القوام الفسيولوجى ، أعنى خلق وظائف متعينة للأعضاء التى تأخذ فى النمو . فالجنين فى بطن الأم فى المراحل الأولى من تكوينه ، يكون كائنا بيولوجيًا وليس كائنا فسيولوجيًا . ولكن مع النمو فى بطنها ، فإن مقومات جسمه تأخذ فى التعين

Looloo
www.dvd4arab.com

والتحديد ، سواء كانت أعضاء داخلية ، أم أعضاء خارجية . وبعد ميلاد ذلك الطفل ، ينبثق ذلك القوام المحايد الذى لا يمكن وصفه بأنه عقل أو بأنه وجدان . فهما كما قلنا ، بمثابة قوام محايد ، ثم يأخذان فى التمايز بعضهما عن بعض ، كما سبق أن تمايز القوام الفسيولوجى من القوام البيولوجى . فالعقل يتمايز من العاطفة . ولكن قبل أن يتمايز العقل ، فإنه يمر فى حلقات من التطور : المرحلة الأولى هى مرحلة الإدراك الحسى ، وتتلوها مرحلة أخرى تنبثق منها هى المرحلة التذكرية التى تتواكب مع المرحلة الإدراكية . فيكون لدى الطفل مقومات إدراكية من جهة ، ومقومات تذكرية من جهة أخرى . ثم ينبثق من المدركات الحسية ومن الذكريات ، قوام جديد هو الخيال . فيكون عند الطفل بالإضافة إلى المدركات الحسية والذكريات ، قوام ثالث هو تلك الأخيلة التى تأتت عن تصنيع الصور الذهنية الإدراكية والصور الذهنية التذكرية فى هيئة صور خيالية . وبعد ذلك ينبثق قوام عقلى جديد هو التصورات أو المفاهيم المجردة والمعمّمة فى الوقت نفسه . وبعد ذلك ينبثق قوام ذهنى أخير هو القوام الذهنى المستقبلى ، أى استشراف المستقبل .

وما قلناه عن الانبثاقات التى تأتت للذهن ، ينسحب بنفس القدر من الصدق بإزاء الإنبثاقات الوجدانية . فباحتكاك الطفل مع الواقع الحى الذى يحيط به ، تستحيل بعض الوجدانات لديه إلى عواطف متحدة بالصور الذهنية . فالعاطفة إذن ليست وجدانًا فحسب ، بل هى وجدان تفاعل مع بعض الصور الذهنية ، فيوصف بأنه مركّب ذهنى لا هو وجدان بحت ، ولا هو صور ذهنية بحتة ، بل هو مركب منهما جميعًا .

انبثاق العقل من العاطفة :

ولكن مع اعترافنا بأن هذا القوام العقلوجدانى ، أو الوجدانى العقلى ، يتأتى عن تلك العمليات التفاعلية التى تحدث فى قوام المرء بين الوجدان وبين الصور الذهنية ، فإننا نستطيع أن نلقى الضوء على هذه العملية التفاعلية ، لنرى كيف تتم ، ولنرى أيهما ينبثق من الآخر ؟ فهل العقل ينبثق من العاطفة ، أم أن العاطفة تنبثق من العقل .

أولاً ـ من حيث نقطة الانطلاق : فأيهما أسبق فى الوجود بقوام المرء : هل هو العقل أم هو الوجدان ؟ إننا كما سبق أن قلنا ، فإن العقل والعاطفة ينبثقان من القوام المحايد الذى لا يمكن وصفه بأنه عقل أو بأنه عاطفة . ولكن إذا نحن تناولنا توقيت الانبثاق والتمايز ، فإننا نجد أن العقل أرقى مستوى من العاطفة ، ومن ثمّ فإننا نستطيع أن نقول إن الطاقة الوجدانية تسبق الطاقة الذهنية فى الوجود .. وبتعبير آخر فإن من الممكن إذا نحن تصفحنا تسلسل الكائنات الحية ، فإننا نجد أن الحيوانات الفقرية والتى تحوز حواسًا كحواسنا الخمس ، تستطيع أن تدرك بها الواقع الخارجى ، ولكن ذلك الإدراك لا تنبثق منه سوى بعض الصور التذكرية ، فلا يتسنى للكلب مثلاً أن يشكّل بذهنه صورًا تخيلية ، أو مفاهيم مجردة ، أو صورًا ذهنية مستقبلية ، وبالتالى فإن الحيوان وغيره من كائنات حية ذات المستوى المرتفع من التطور ، لا تستطيع أن تنشئ حضارة . ولكن إذا نحن قارنا نشاطها الذهنى بنشاطها الوجدانى ، فإننا نجد أن ما يتشكّل لديها من عواطف متبلورة حول موضوعات محددة ، يحتل مستوى رفيعًا . فهل منا من ينكر أن لدى الكلب عواطف متبلورة ومتأججة تجاه صاحبه وتجاه المتعاملين معه ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

من هنا فإننا نستطيع القول بأن الوجدان هو المستوى التطورى السابق على المستوى العقلى على أساس أننا نعنى بالعقل تلك المستويات العليا من الفكر ، المتمثلة فى المفاهيم المجرّدة والمعمّمة من جهة ، وفى التصورات الذهنية المستقبلية من جهة أخرى . ناهيك عما يمكن أن يترتب عليها من تصرفات متباينة .

تأثير العقل فى العاطفة :

مما لا شك فيه أن العقل له تأثير فى العواطف التى يحملها المرء فى قوامه إلى مدى بعيد كما سبق أن ذكرنا أنه يسمو عن مستوى العاطفة . ويتضح هذا فى البنود التالية :

أولاً ـ من حيث تنوُّع العواطف : فكلما كان المرء أكثر رجحانا من حيث التصورات الذهنية التى تعتمل فى عقله ، فإن العواطف التى يحملها فى قوامه ، تكون أكثر خصوبة وتنوعا . فالشخص المتخلف عقليًا ، تتسم عواطفه بأنها محدودة من حيث مدى الخصوبة ، بينما تجد الأديب والفيلسوف ورجل السياسة والمثقف بصفة عامة ، قد حشدت فى قلوبهم أنواع متباينة من العواطف . وكلما كانت المصادر الخبّرية التى ينفتح عليها المرء أكثر خصوبة ، كانت العواطف التى تعتمل فى قوامه أكثر تنوعا . وواضح أن المصادر الخبرية إما أن تكون مباشرة ، وإما أن تكون رمزية عن طريق الرموز المقروءة أو المشاهدة أو المسموعة .

ثانيًا ـ من حيث مدى العمق : فالعواطف التى تعتمل فى قلب الشخصية المثقفة ، وأيضا الشخصية المتدينة ، تكون عميقة . فالعواطف ليست مجرد تبلور الوجدان حول موضوعات كائنة ما تكون ، بل المهم هو مدى العمق الذى تتمتع به تلك العواطف .

فلا بد أن تكون العواطف عميقة ، حتى يتسنى أخذها فى الاعتبار ، وحتى تقدم تصديرا خارج نطاق المرء ذا قيمة ، فالأديب أو الفنان صاحب العواطف العميقة ، يستطيع أن يقدم إنتاجًا أدبيًا أو فنيًا يزاوج مع مدى عمق عواطفه .

ثالثًا ـ من حيث مدى توافر الإمكانات للتعبير عن العواطف : فالواقع أن العواطف التى تتبلور فى دخيلة المرء ـ فى أى مجال نشاطى يهتم به ـ لا تستطيع أن تتجسد فى الواقع الخارجى إلا إذا توافرت بذلك الواقع الخارجى الإمكانات التى يتسنى عن طريقها التعبير عن تلك العواطف ، أى إخراجها من النطاق الداخلى للمرء إلى النطاق الخارجى البادى للعيان .

رابعًا ـ التسلح بالمهارات المناسبة للتعبير عن العواطف : فتوافر الإمكانات بالواقع الخارجى ، لا يكفى حتى يتسنى التعبير عن العواطف ، والعمل على إخراجها من النطاق الداخلى للمرء صاحب تلك العواطف ، إلى الواقع الخارجى ، بل لا بد من تسلُّحه بالمهارات التى يتسنى له عن طريق تمكّنه منها ، صياغة تلك العواطف فى الصيغ المناسبة والدقيقة .

خامسًا ـ مناسبة التعبير عن العواطف للمتلقين : فمن الأهمية بمكان أن تكون الصيغ التعبيرية التى يُعبّر بها المرء عن عواطفه ، مناسبة للمتلقين الذين تقدم إليهم . فمهما كانت الصيغ التعبيرية عن العواطف على مستوى من السمو والإتقان ، ولكنها لا تناسب المستهلكين لها ، فإنها تكون بلا قيمة . فعملية التواصل بين صاحب تلك الصيغ التعبيرية والمجتمع الذى يتعامل معه ، على أكبر جانب من الأهمية .

Looloo
www.dvd4arab.com

هناك فى الواقع تأثير متبادل فيما بين العاطفة والعقل . فكما أن العقل يؤثر فى العاطفة ، كذلك تؤثر العاطفة فى العقل . ويتبدى تأثير العاطفة فى العقل فى الجوانب التالية :

أولاً ـ المجالات التى يقع عليها اختيار المرء : فما يقع عليه المرء من مجالات يُؤثرها على غيرها ، إنما يكون بتأثير عواطفه . فنحن نجد أمامنا مجالات كثيرة متباينة ، ولكننا نختار من بينها ما يروق لنا ، وما يعزف على أوتار قلوبنا .

ثانيًا ـ الطرائق التى تم بها تناول المجالات المختارة : فالمرء لا يتوقف عند حدود ما يقع عليه اختياره من مجالات ، بل يقوم باختيار الطرائق التى يتسنى بها معالجة كل مجال من تلك المجالات التى اختارها ، إذا كان قد حدد المجالات التى يضرب فى إثرها ، أو يقوم بغزوها . فلكل فنان طريقة أو طرائق يعالج بها الفن الذى يشتغل به . وأكثر من هذا فإنه يترك طابعه الشخصى على الطريقة أو على الطرائق التى يقع عليها ويُؤثرها على غيرها . فهو لا يطبق الطريقة كما هى ، بل يطبعها بطابعه ، ويشكلها وفق مزاجه .

ثالثًا ـ التطور الذهنى : فبالنسبة لتطور المرء ذهنيًا ، فإن ذلك التطور محكوم بما يعتمل فى قوامه النفسى من مثل عليا . تلك المثل التى يتعشقها ويصبو إليها ويعتز بها . فهو يحس أنها جزء لا يتجزأ من قوامه النفسى . وكلما تأججت العاطفة لدى المرء ، أو بتعبير آخر كلما زاد حماسه وتعمق وأخذ به كل مأخذ ، فإنه يكون خليقًا بتحقيق تلك المثل العليا التى وضعها نصب عينيه . ولقد نقول إن الطاقة الوجدانية لديه بمثابة الدافع له نحو تطوير مثله العليا ، والتقدم بها حثيثًا إلى الأمام .

رابعًا ـ التعاون والتنافس : فإذا ما تناولنا ما ينشأ بين الفرد وغيره من أفراد ، أو بين الجماعات بعضها وبعض من تعاون وتنافس ، فإننا نجد أن المجالات التى يتعاونون بصددها تنطوى على غايات معتملة فى أذهان المتعاونين والمتنافسين . وبتعبير آخر فإن إعتمال عقولهم فيما يتعاونون بصدده ، أو يتنافسون بإزائه ، يقع فى نطاق المعقولات . ولكن تلك المعقولات لا تبدى أى نشاط إلا إذا توافرت لها تلك الطاقة الوجدانية ، أو بتعبير نؤثره ، إلا إذا تبلور الوجدان حولها وتفاعلت معه ، واتحدت به . وفى سياق هذا التبلور أو التفاعل ، نستطيع أن نلاحظ تأثير الوجدان المتبلور فى تلك الأشياء المتسمة بأنها فى نطاق المعقولات .

خامسًا ـ اليأس والرجاء : فالتاجر الذى بارت تجارته ، أو المفكر الذى صدّ الناشرون عن نشر أفكاره وتقديم بحوثه للقراء ، يصيبهما اليأس فى الغالب . ولكن ذلك التاجر وهذا المفكر ، قد يجدان من تشجيع المخلصين لهما ، ما يبث فى قلبيهما الأمل من جديد ، فيستمران فى مزاولة نشاطهما . فالتاجر ينهض لشق طريق أو طرق جديدة لتجارته ، كما أن المفكر يأخذ فى اختيار الموضوعات التى تهم الناشرين ويقوم بتدبيجها . ومن ثَمّ فإن العاطفة التى بثها الأصدقاء فى قلبيهما ، تكون بمثابة سلاح يساعدهما فى تسيير أمورهما ، فتساعد على نهوض ذلك التاجر وهذا المفكر من كبوتهما .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل التاسع
وظائف العـاطفة

الوظيفة التجميعية :

لولا العاطفة لما كان هناك زواج ، ولما كانت هناك مجتمعات ، سواء المجتمعات الصغيرة ، أم المجتمعات الكبيرة . فالعواطف التى تعتمل فى العلاقات الاجتماعية هى التى يناط بها الفضل فى تكوين الأسر والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينية المتباينة . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض العوامل الدينامية التى يتم توظيفها حتى يتسنى إقامة تلك المؤسسات الصغيرة والكبيرة ومتباينة الوظائف على النحو التالى :

أولاً ـ تقريب القلوب بعضها من بعض : فمن تلك العوامل الدينامية التى تعتمل فى الموقف التجميعى ، عامل تقريب قلبين أو أكثر بعضهما من بعض . وهذا التقريب قد يتم مباشرة منذ أول لقاء ، كما يحدث بين شاب وشابة يلتقيان فى إحدى المناسبات بالمصادفة ، كأن يكونا مسافرين بإحدى الطائرات ، وقد جلسا على مقعدين متجاورين . فبمجرد لقاء أعينهما بعضها ببعض ، ومنذ اللحظة الأولى التى يتبادلان فيها الحديث ، فإن أوتار قلبيهما تدق ، ويحسان بأنهما لابد أن يرتبطا ، وأن فراقهما بعضهما عن بعض ، سوف يسبب لهما ألما نفسيًا ، بل وصدمة وجدانية لا يتحملان وقعها ، وأن استمرار تواجدهما فى ظل جميع الظروف مهما كانت ، سوف يعمل على نشر

ألوية السعادة على علاقتهما . ولقد يكون لهذه الوظيفة التجميعية بالنسبة لبعض الناس الأثر الاقتصادى الهام ، إذ أن مجرد مقابلة أحد التجار لتاجر آخر ، يمكن أن يُفضى إلى إنشاء مشروعات ناجحة مشتركة فيما بينهما . ولا يكون المال هو الذى جمع الشمل بينهما ، أو يكون له الفضل فى إنشاء المشروع الاقتصادى ، بل يكون الفضل راجعا إلى ذلك التجاوب النفسى الذى يمكن ترجمته فى ضوء العواطف التى تبادلاها منذ أول لقاء .

ثانيًا ـ إزالة العوائق : وكما أن اللقاء بين شخصين قد يعمل على تقريب قلبيهما بعضهما من بعض ، كذا فإن ذلك اللقاء قد يكون مصحوبا بهدم الأسوار القائمة فيما بينهما . فلقد تكون الحواجز أو الأسوار القائمة بين الشاب والشابة اللذين أشرنا إليهما فى البند السابق متمثلا فى الفروق الطبقية بينهما . فبينما يكون الشاب من طبقة أرستقراطية ثرية ومحافظة ، فإن الشابة قد تكون من عامة الشعب ، أو من الطبقة التى تعيش على الكفاف ، أو التى لا تحتل مكانة اجتماعية تسمح لها بالتطلع إلى احتلال مكانها بين الطبقات الثرية . ولكن الشاب الغنى يندفع نحو هذا الحاجز القائم بينه وبين من استولت على قلبه ، ويُعمل فيه معاول الهدم ، مؤكدا أن بمقدوره أن يقنع الأهل والأقرباء بأن تلك الشابة هى الأثيرة لديه ، وأنه بدونها سوف لا يستشعر السعادة فى حياته الزوجية .

ثالثًا ـ ترسُّم الأهداف : ومن الديناميات المعتملة فى المواقف التجميعية ، تلك الدينامية الخاصة باستهداف أهداف جديدة للمؤسسة الاجتماعية التى يزمع إنشاؤها . فلا يكفى أن تلتئم القلوب بعضها مع بعض ، كما لا يكفى إزالة الحواجز والتغلب على الصعاب ، بل لابد من تحديد مجموعة من التصورات الذهنية المتعلقة بما سوف يتم

Looloo
www.dvd4arab.com

تحقيقه فى المستقبل . فاللقاء القلبى لا يقتصر على المشاعر المعتملة فى الموقف الراهن ، بل يتعدى ذلك إلى ما سوف تترجم إليه تلك المشاعر لكى تصير حقائق واقعة فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء .

رابعًا ـ التعاون لتحقيق الأهداف : وكما أن العاطفة المشتركة تساعد على ترسُّم الأهداف المشتركة بين شخصين أو أكثر ، فإنها تساعد أيضًا على تحقيق التعاون بين أولئك الأشخاص المشتركين فى العمليات التعاونية التى يسهم كل واحد منهم بنصيب فى تحقيقها . ولولا التآزر فيما بينهم وتوجيه عواطفهم فى تيار واحد مشترك ، لما كان لهم إذن أن يتمكنوا من تحقيق التعاون فيما بينهم فى سبيل تحقيق الأهداف التى اشتركوا فى ترسُّمها ، وعقد الأمل على إحالتها من حيز الفكر إلى حيز الواقع الخارجى .

خامسًا ـ التضحية من أجل الجماعة : وكما أن العاطفة تعمل على تجميع القلوب بعضها إلى بعض ، كذا فإنها تعمل أكثر من ذلك على إحالة الكثرة إلى وحدة . فالأفراد الذين تتشكل منهم الجماعة ، يستحيلون إلى جسم حى واحد تتآزر فيه أعضاؤه بعضها مع بعض ، ويكون كل عضو فيه مستعدًا لأن يضحى بنفسه من أجل المجموعة إذا تعرضت للخطر ، أو تهدّدها الفناء . ذلك أن « الأنوات » (جمع الأنا) المتباينة للأفراد الذين يشكّلون تلك الجماعة تذوب بعضها فى بعض ، فيتكوّن نتيجة ذلك الذوبان جهاز نفسى جماعى هو جهاز « النحن » . وهذا الجهاز الجمعى يكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن كيانه ، حتى ولو تطلب ذلك التضحية ببعض أعضائه المكوّنين له .

الوظيفة الدفاعية :

وللعاطفة وظيفة أخرى إلى جانب الوظيفة التجميعية التى عرضنا لها ، هى الوظيفة الدفاعية . ومن الطبيعى أن نبدأ بإلقاء الضوء على اعتمال تلك الوظيفة فى حياة الفرد على النحو التالى :

أولاً ـ الدفاع البيولوجى : وهو الدفاع الذى يبدأ المرء فى ممارسته عندما يحس بالخطر المُحْدق به أو المهدد لحياته . ويبدأ هذا الدفاع باعتمال عاطفة الخوف ، وتتلوها عاطفة الغضب ، فيتهيأ المرء لدفع الخطر عن نفسه ، سواء كان الخطر المحدق به صادرًا عن جماد أم عن حيوان أم عن إنسان . فالمهم أنه عندما يحس بالخطر الوشيك ، فإنه يتسلح بالعاطفة ، ويصيغها وفق الصيغ المناسبة للموقف ، سواء من حيث كمية الخوف أم من حيث كمية الغضب ، أم بما يتذرع به من وسائل دفاعية يستعين بها فى مقاومة الخطر الذى يحس باقترابه منه ، سواء كان ذلك الخطر خطرًا حقيقيًا ، أم كان خطرًا وهميًا ران على ذهن المرء ، فصور له خياله وجوده مع أنه ليس سوى أخيلة فارغة من المضمون الموضوعى الخارجى .

ثانيًا ـ الدفاع النفسى : فالواقع أن المرء يحاول جاهدًا أن يتمتع بالهدوء النفسى . ولكن غالبية الناس تثيرهم الذكريات المؤلمة ، سواء بطريقة شعورية واعية ، أم بطريقة لا شعورية غير واعية . فالكثير من الأحلام والكوابيس تهاجم المرء وهو يغط فى النوم ، فينهض فزعًا . ولكنه ما يكاد يستيقظ من نومه حتى يتخذ لنفسه درعًا حصينًا ضد المخاوف التى سيطرت عليه وهو فى غفلة من أمره ، أعنى وهو غائص فى النوم العميق . فهو باستعانته بالوعى ، يشن حملة شعواء بواسطته على تلك الأحلام والكوابيس ، أو بتعبير أدق على الآثار

Looloo
www.dvd4arab.com

التى ترتبت على مشاهدته لها فى نومه . فهو يبذل الجهد النفسى للقضاء على آثارها النفسية ، ويأخذ فى إقناع نفسه بأن ما شاهده فى نومه ليس له رصيد من الحقيقة أو الديمومة . فسوف تتوقف الأحلام والكوابيس بدليل أنه لا يشاهدها وهو فى حال اليقظة . وكذا فإن المرء يذب عن نفسه الشعور بأنه أقل من الآخرين شأنا . فهو يسلح عواطفه للدفاع عن ثقته بنفسه . فإذا كان لدى الآخرين ما يحملهم على الثقة فى أنفسهم ، فإن لديه بالمثل من المزايا ما يجعله واثقا فى نفسه أيضا . فليس من المهم أن تكون له الميزات نفسها التى يتمتع بها غيره ، بل المهم أن لديه ميزات شخصية ليست لدى الآخرين . فثقة المرء فى عقله وفى مواهبه ، تجعله فى مأمن من الخور النفسى ، ومن الوقوع تحت طائلة الانهيار النفسى ، أو الوقوع فى براثن المرض النفسى .

ثالثًا ـ الدفاع الأخلاقى : فكل واحد منا يحمل بين أضلعه جهازا نفسيًا يعتبر المسئول عن تحقيق الملاءمة والانسجام بين المرء وبين المجتمع . فكلما أراد أن ينحرف عن القيم التى يأخذ المجتمع أبناءه بها ، فإن « الأنا الأعلى » يقف له بالمرصاد ، وينهاه عن ذلك قبل الوقوع فى ذلك الانحراف ، والخروج عن الخطوط التى رسمها المجتمع . فالمرء يدافع عن ذلك الجهاز النفسى الممثل للمجتمع وقيمه وأخلاقياته ، ويتسلح بالطاقة العاطفية التى شكلها نتيجة تبلور وجدانه حول القيم الاجتماعية . فهو يقيد سلوكه ، أو قل أكثر من هذا ، إنه يصب سلوكه فى القوالب الاجتماعية التى باركها المجتمع وحددها للمرء لكى يصب نفسه فيها ، ولا يخرج عنها قيد أنملة .

رابعًا ـ الدفاع التذوقى : فثمة إلى جانب قيم الخير والشر ، قيم المناسب وغير المناسب من السلوك ، وقيم الجمال والقبح . فكما أن المرء يدافع عن القيم الأخلاقية عن طريق دفاعه عن « الأنا الأعلى » ،

فإنه يدافع بالمثل عن السلوك المناسب للمقام ، وأيضا عما هو جميل فى حياته . فكلما ارتقى المرء فى مستوى شخصيته ، فإنه يكون خليقا بأن يتحرى المناسب والجميل فى جميع أنحاء حياته . بيد أن التوقع شىء ، والواقع شىء آخر . فالكثير من الناس لا يتسنى لهم التسلح الكافى بعواطفهم للدفاع عما هو مناسب ، وعما هو جميل ، والنأى عما هو غير مناسب ، وعما هو قبيح فيما يبدو من شخصياتهم أمام الآخرين ، وفيما يعبرون عنه بالكلام المنطوق أو الكلام المكتوب ، أو فيما يتخذونه من تصرفات ومواقف .

خامسًا ـ الدفاع المنطقى : وثمة أيضا موقف دفاعى يتخذه المرء فى حياته ، هو ما نسميه بالدفاع المنطقى . فلدى المرء القدرة على تمييز الصواب من الخطأ . ومن ثَمَّ فإنه يدافع عن الحق الذى يعتبر صوابا منطقيًا . فالقوالب المنطقية التى تهيأت للإنسان العاقل تشكل محورا نفسيًا داخليًا يسيّر به أموره ، ويوازن بواسطته بين الوقائع ويضعها أمام هذا المحك . وكلما أخذ يحيد عن هذا المعيار الداخلى ، فإنه يحد من عواطفه ما يصده عن ذلك الحيْد ، ويحثه على انتهاج طريق الحق والصواب وتجنب الخطأ وما ينافى العقل السليم .

الوظيفة التذوقية :

مما لاشك فيه أن الإنسان ـ بل والكثير من الكائنات الحية الأخرى ـ تتذوق الحياة ، فتقبل على ما يروق لها ، وتنبو عما لا يماشى مذاق حياتها . وهناك فى الواقع مجموعة من الجوانب التى يتذوقها الإنسان فى علاقاته بما يحيط به ، لعلنا نقوم بتقديم أهمها على النحو التالى :

أولاً ـ اللذيذ والمؤلم : فنحن فى سياق حياتنا نجد أن هناك أشياء نلتذ بها ، وأشياء أخرى تؤلمنا ، فنقبل على اللذيذ ، وننبو عن المؤلم .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن مع تقدم الإنسان فى معارج التقدم ، فإن ما اكتسبه من قيم دينية وأخلاقية وحضارية ، تجعله يفاضل فيما بين اللذيذ والمؤلم . فبعض اللذائذ نتحاشاها ، وبعض ما يسبب لنا الألم نرنو إليه ولا نتحاشاه . فالقيم التى نتوخاها فى حياتنا قد جعلتنا لا نجرى بعماء نحو اللذائذ ، ونتحاشى ما يؤلمنا ، بل إننا نقوم بالتمييز بين اللذيذ المستحسن واللذيذ الذى ينبغى علينا أن نتجنبه ، كما نميز بين المؤلم الذى يجب النأى عنه ، والمؤلم الذى يجب السعى وراءه واقتفاء أثره ، وتحمله بصدر رحب .

ثانيًا ـ الجميل والقبيح : ومن وظائف العاطفة أيضًا التسلح بالتمييز فيما بين الجميل والقبيح . وهذا المعيار لا ينصب على الخارج فقط ، بل ينصب على الداخل أيضًا . فنحن نسائل أنفسنا : هل ما نظهر به أمام الناس يتسم بالجمال ، أم يتسم بالقبح ؟ وهل ما نعبر به من كلام قد صيغ فى قوالب جميلة ، أم فى قوالب قبيحة ، من حيث الصوت المسموع أو الكلام المكتوب ، أم من حيث المعانى التى نعبر بها ؟ ولا شك أن تربية التذوق الجمالى من الأهمية بمكان ، سواء تأتت التربية بالتقليد المباشر والتربية الذاتية ، أم نتيجة التدرُّب والخضوع لما تلقيناه من تربية منذ الطفولة ، وحتى اللحظة التى نحياها حاليًا .

ثالثًا ـ المناسب وغير المناسب : وكما أننا نتحسس الطريق نحو اللذيذ وننبو عن المؤلم بصفة عامة ، ونتحسس الطريق نحو الجميل وننبو عن القبيح ، كذا فإننا نتحسس الطريق نحو المناسب وننبو عن غير المناسب . صحيح أننا نتشرب القيم المتعلقة بالمناسب وغير المناسب من المجتمع الذى نشأنا فيه ، ولكن الواقع أن العاطفة تعتبر بمثابة الطاقة التى يتسنى لنا بواسطتها أن نضطلع بهذا التشرُّب . فلولا العاطفة ما كان يجدى أن ننشأ بأى مجتمع ، بل كنا نظل نتخبط فى الاختيار ، فلا نميز بين المناسب وغير المناسب فى المواقف وفى التصرفات المتباينة .

رابعًا ـ الخير والشر : وعلى النحو نفسه ، فإننا نتذوق الخير وننبو عن الشر بفضل ما لدينا من عاطفة . ذلك أن العاطفة ، كما قلنا ، إنما هى ثمرة لبلورة الوجدان حول محاور معينة . وهذا التبلور لا يكون حول الأشياء المحسوسة فحسب ، بل يكون حول المعانى والقيم والمفاهيم المجردة أيضًا . ومعنى هذا أن عواطفنا يمكن أن تكون متبلورة حول قيم الخير ، كما يمكن أن تكون متبلورة حول قيم الشر . وعلى هذا فإننا نستطيع القول إن الأخيار قد قاموا ببلورة وجدانهم حول قيم الخير ، بينما قام الأشرار ببلورتها حول قيم الشر .

خامسًا ـ المنفعة والضرر : أخيرًا فإننا نجد أن العواطف قد تكون متبلورة حول المنافع ، كما أنها قد تكون متبلورة حول المضرّات . فبينما نجد الأشخاص الأسوياء قد تبلورت عواطفهم نحو ما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، فإن الأشرار يكونون قد بلوروا عواطفهم حول الشر بالنسبة لغيرهم ، أو حتى بالنسبة لأنفسهم وذلك بالانتحاء إلى الانتحار البدنى أو الانتحار الأدبى . ذلك أن من الناس من لا يهمهم سمعتهم ، بل إنهم يكرهون ذواتهم ، ويعمدون إلى تمريغ سمعتهم فى الطين ، وذلك بالتلبس بالسلوك النابى عن الخير ، أو النابى عن السوية النفسية . فيكون الواحد منهم عامدًا إلى اقتراف الانتحار الأدبى . ومن جهة أخرى فإن البعض ينتحون إلى إصابة الآخرين بالضرر ، سواء فى ثروتهم وممتلكاتهم ، أم فى حياتهم أو صحتهم أو فى سمعتهم .

الوظيفة المستقبلية :

علينا ألا ننسى ما تلعبه العاطفة من دور هام جدًا بإزاء المستقبل . فنحن لا نتعلق بالحاضر والماضى فحسب ، بل نتعلق بالمستقبل أيضًا .

Looloo
www.dvd4arab.com

وتعلقنا الذى نسميه الأمل ، إنما هو فى الواقع بمثابة التفاف وجداننا وبلورته حول أهداف مستقبلية ، أو حول توقعات نرقبها ونتمنى حدوثها وتحقيقها على خير وجه . فالطالب يتطلع إلى آخر العام لكى ينجح ، والموظف يتطلع إلى المستقبل لكى يحظى بالترقية ، والتاجر يهفو إلى الكسب ورواج تجارته فى المستقبل . وقل الشىء نفسه بإزاء جميع الناس فى جميع الأعمار والمواقع .

وعلينا أن نقوم فيما يلى باستعراض الأهمية المنوطة بالوظيفة المستقبلية للعاطفة ، فنجد أن هذه الأهمية يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً ـ العلاج النفسى : فالواقع أن العلاج النفسى الذى يستعين به الأطباء النفسيون يتمركز فى جانب كبير منه فى وقف المريض نفسيًا على ما يمكن أن يترتب به المستقبل من نجاح أو رخاء أو صحة أو علاقات اجتماعية أفضل من العلاقات الاجتماعية التى تحيط به آنيًا . فتشوف المستقبل ، وما يمكن أن تتبلور وجدانات المريض حوله ، إنما يشكل أداة هامة فى إخراجه نفسيًا من قمقم الحاضر والماضى ، وفتح المجال المستقبلى أمامه .

ثانيًا ـ التخلص من ركامات الماضى وهموم الحاضر : فالواقع أن الخبرات تتوزع على أضلاع الزمان الثلاثة ، أعنى ضلع الماضى ، وضلع الحاضر ، وضلع المستقبل . فإذا كانت هموم الماضى وعقبات الحاضر تقيد آمال المرء وتحط من معنويته ، فإن ما يمكن أن ينسج من عواطف حول آفاق المستقبل ، يمكن أن يُفضى إلى تحقيق التوازن النفسى بين ما ينوء به كاهل المرء تحت تلك الركامات الماضية والآنية ، وبين التوقعات المستقبلية المفعمة بالبشر والسعادة . وبذا تتحقق سوية المرء النفسية .

ثالثًا ـ شحذ الهمة وتقوية الإرادة المستقبلية : فمما لا شكل فيه أن من ينسج أخيلة مستقبلية تبشر بالخير ، عامدًا إلى بلورة وجدانه حولها ، إنما يكون فى الواقع قد حفز ما لديه من إرادة قوية للخروج من قوقعة الكسل والتواكل ، والتشمير عن ساعد الجد وبذل أقصى الطاقة للتحرر من قيود الكسل والتراخى ، والتسلح بقوة العزيمة والإرادة الصُلْبة .

الوظيفة الثقافية :

وعلينا ألا ننسى ما للعاطفة من دور خطير تلعبه بإزاء الثقافة . فالنشاط الثقافى ، سواء كان نشاطًا عقليًا ، أم نشاطًا أدائيًا ، أم نشاطًا علائقيًا ، أم نشاطًا يتعلق بالقيم ، أم غير ذلك من أنشطة ثقافية ، إنما يكون متلبسًا ومتسربلاً بالعاطفة . فلولا تبلور عواطفنا حول الموضوعات الثقافية ـ كائنة ما تكون ـ لما كان بمقدورنا بأى حال من الأحوال أن نستوعب أى قدر من الثقافة ، وبالأولى لا يكون بمقدورنا أن نقوم بالتصدير الثقافى والمشاركة فى الركب الثقافى ، أو التأثير فى الناس من حولنا بالأدوات الثقافية المتباينة .

فللعاطفة التى نكون قد بلورناها حول المحاور الثقافية المتباينة الفضل فيما نكتسبه من ألوان ثقافية ، وفيما يتسنى لنا إبداعه فيها . فلولا تعلُّق المبدعين بعواطفهم بالميادين الثقافية التى يشتغلون بها ويشاركون فى تقدمها ، لما كان لهم إذن أن يساهموا بأى قدر من المساهمة فى المسيرة الثقافية .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل العاشر
العاطفة والمشاركة الوجدانية

التفسير بالإحلال :

إن أول تفسير يخطر على البال إزاء العلاقة القائمة فيما بين العاطفة والمشاركة الوجدانية ، هو التفسير بالإحلال . ونعنى بالإحلال أن يتخيل المرء نفسه وقد حلّ محل الشخص الذى يعمد إلى مشاركته وجدانيًا ، سواء أكانت تلك المشاركة الوجدانية مشاركة فى الفرح ، أم مشاركة فى الحزن ، أم مشاركة فى الخوف ، أم فى غير ذلك من مواقف وانفعالات ووجدانات ثائرة . ولعلنا نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على تلك العلاقة الإحلالية التى يتخذها الشخص المشارك وجدانيًا بالخيال مع الشخص الذى يحل محله ، فنجد أن تلك العلاقة يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً ــ الإحلال الفكرى : فالمرء فى حالة الإحلال الوجدانى ، يستشف التصورات الذهنية المعتملة فى ذهن الشخص الذى يُحل نفسه محله ، بل ويستشف المنهج الذهنى الذى يتذرع به فى سَوق تلك التصورات الذهنية ، والتعامل معها وتوجيهها . ولعلنا نقول بهذه المناسبة : إن قدرة الشخص القائم بالإحلال على التقبُّل الإيحائى ، تلعب دورًا أساسيًا فى هذا النشاط الإحلالى . وبتعبير آخر فإن الشخص الإحلالى يكون بمثابة جهاز استقبال ، وأن الجهاز الذهنى لدى الشخص الذى تنقل منه التصورات الذهنية ، يكون بمثابة جهاز

إرسال . وكلما كان الشخص الإحلالى على درجة أكبر من التقبُّل الإيحائى أو الاستقبالى ، فإن الصور الذهنية المنقولة إليه من الشخص المرسل ، أعنى الشخص الذى تتم المشاركة الوجدانية معه ، تكون على جانب كبير من الوضوح والدقة .

ثانيًا ــ الإحلال الوجدانى : وعلى النحو نفسه ، فإن الشخص الإحلالى يكون على درجة كبيرة من القابلية ؛ لاستقبال الحالات الوجدانية المعتملة فى قلب الشخص الذى تتم المشاركة الوجدانية معه . ومما لا شك فيه أن نقل الحالات الوجدانية من شخص لآخر يتم بطريقة لا شعورية ، بمعنى أن أرادة الشخص الإحلالى لا تلعب دورًا فى هذا الموقف ، وذلك لأنه يكون مجرد مستقبل ، وقد اتخذ دورًا سلبيًا استقطابيًا . فهو يكون كالسلك الذى تمر فيه الكهرباء دون أن يلعب أى دور فى ذلك السريان الكهربى . وبتعبير آخر فإن التقبُّل الوجدانى يكون تقبُّلاً ميكانيكيًا، أو أن الشخص الإحلالى يكون مسلوب الإرادة ، وكأنه تحت سيطرة التنويم المغنطيسى . فهو يكون خاضعًا وليس مُخْضعًا أو مسيطرًا على الموقف .

ثالثًا ــ الإحلال الإرادى : وبالنسبة للإرادة ــ كما قلنا ــ فإن الشخص الإحلالى يكون مسلوب الإرادة . بيد أنه خلال المرحلة الأولى من التناغم الوجدانى الإحلالى ، فإن الإرادة تلعب خلالها دورًا إيجابيًا . ذلك أن الإحلال يتم بموافقة المرء الإحلالى ورغبته . فهو يتجه ــ إذا صح التعبير ــ بتجاه الحالة العقلية والوجدانية والإرادية للشخص الذى تنقل عنه الحالة بكاملها أو تستشف . والشأن هنا كالشأن بإزاء الشخص الذى يخضع للمنوِّم المغنطيسى . فهو يسلِّم نفسه له برغبته وإرادته ، ويتركه يفعل به ما يشاء . كذلك الحال بالنسبة للشخص الإحلالى . فهو يسلِّم نفسه للموقف ، برغم أن

Looloo
www.dvd4arab.com

بمستطاعه أن يتحاشى الموقف الإحلالى تمامًا ، إذا هو أراد ذلك . وبتعبير آخر فإننا نقول : إن المشاركة الوجدانية فى المرحلة الأولى منها ، تخضع للإرادة الحرة للشخص الإحلالى . ولكن ما يتلو تلك المرحلة يتّسم بالتسليم والاستسلام .

التفسير بالتقمّص :

نقصد بالتقمص شيئا آخر غير الإحلال . فالتقمص يعنى التلبس بخصائص الشخصية التى تنقل عنها المشاركة الوجدانية . فلا يكون التقمص مجرد إحلال المرء محل الشخص الذى تنقل عنه المظاهر الوجدانية ، بل يكون الوضع أخطر من ذلك . فالمتقمص لا يحل نفسه محل الشخص الذى ينقل عنه مظاهره الوجدانية ، بل على عكس هذا فإنه يقوم بإحلال ذلك الشخص محله . وبتعبير آخر فإنه يلغى شخصيته ، ويعمل على امّحائها . وذلك بأن يستعير شخصية من يتجاوب معه وجدانيًا ، ويتخذها شخصية له ، فيفكر بفكرها ، وينعطف بعواطفها ، ويعمل بإرادتها .

ولعلنا نقوم بإلقاء الضوء على حالة التقمص الوجدانى فى حالة المشاركة الوجدانية ، لكى نقف على خصائص هذه الحالة فيما يلى :

أولاً – الانخراط فى حالة شبه لا شعورية : فالشخص المتقمّص بالمشاركة الوجدانية ؛ ينخرط فى حالة شبه لا شعورية ، وذلك بأن يغوص فى دخيلته الذاتية بحيث يبطل المقاومة الإرادية . والواقع أن المرء وهو فى حالة الوعى الشعورى ، يكون مقاومًا للواقع الخارجى ، فلا يصهره فى بوتقته . ولكنه إذا تخلى عن تلك الحالة الواعية الشعورية ، وانخرط فى الحالة اللاشعورية ، فإنه يكون بذلك قد ترك الباب مفتوحًا أمام أى غزو يقتحم قوامه النفسى ويفرض عليه من

الخارج . وبهذه المناسبة فإننا نقول : إن العلاقة بين الشعور واللاشعور هى علاقة تضاد ، أعنى أنها علاقة نسبية . فالطريق مفتوح ومتدرج بين الشعور واللاشعور . وبذا فإننا نقول : إن المرء يكون فى حالة شعور نسبى ، أو فى حالة لا شعور نسبى .

ثانيًا – التخلص من الخصائص الشخصية : فالشخص الذى يقوم بالتقمّص الوجدانى يخلع عن نفسه سمات شخصيته ، ويتلبس بسمات الشخص الذى يتقمّص شخصيته . فثمة إذن عملية تنحية لجهاز « الأنا » ، وإحلال جهاز « الآخر » محله . وطبيعى أن تلك التنحية أو استبعاد الأنا ، إنما تكون تنحية أو استبعادًا مؤقتًا . فتلك الحالة ، تظل مستمرة طوال الفترة التى يستغرقها التقمص . وبعد انتهائها يستعيد المرء المتقمّص الأنا الخاصة به ، ويكون فى الوقت نفسه قد استبعد أو محا السمات الخاصة بالشخص الذى تقمّصه . ذلك أن التقمُّص لا يستمر دون انقطاع ، بل يستمر لفترة معينة ، ثم يأخذ فى التلاشى والخفوت إلى أن ينطفئ تمامًا .

ثالثًا – استعارة السلوك الخاص « بالآخر » : ولا يقتصر أمر التقمُّص على ما ذكرناه ، بل يتعدى ذلك إلى استعارة مظاهر السلوك البادى للعيان ، الخاص بالشخص الذى يتم تقمُّص شخصيته . فكما أن آلة التصوير تلتقط صورة مطابقة لما تسلّط عليه ، كذا فإن الشخص المتقمّص يتسم بأنه شخصية تقبّلية تمامًا ، بمعنى أنه يتلقى تفاصيل شخصية الشخص الذى يتقمّصه ، وينقلها إلى قوامه الذاتى . ويستتبع هذا بالطبع تنحية الخصائص الشخصية الذاتية ، ونقل خصائص الشخص الذى يتم تقبله أو تقمُّصه ، كما هى بحذافيرها وتفصيلاتها .

Looloo
www.dvd4arab.com

التفسير بالاندماج :

ومن الممكن تفسير المشاركة الوجدانية باندماج شخصية المشارك وجدانيًا مع شخصية الشخص الذى يشترك معه فى تلك المشاركة الوجدانية . والفرق بين الاندماج وبين التقمُّص ، هو أن التقمُّص يكون من طرف واحد ، أعنى الشخص الذى يقوم بعملية التقمُّص . أما الاندماج فهو عبارة عن انصهار الجهازين الوجدانيين للشخصين فى بوتقة واحدة ، فيتكون منهما جهاز وجدانى واحد . ولعلنا نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على ذلك الموقف الاندماجى ، لكى نقف على خصائصه على النحو التالى :

أولاً ــ استحالة الأنا عند الطرفين إلى « نحن » : ففى حالة الاندماج الوجدانى ، يحدث انصهار بين الأنا الخاصة بالمرء ، وبين الأنا أو الأنوات الخاصة بالشخص أو بالأشخاص الذين يتم الانصهار الوجدانى بينهما . ولعلنا نقول : إن حالة الاندماج أو الانصهار الوجدانى ، تمثل ذروة المشاركة الوجدانية . ذلك أن الطرفين المشتركين فى عملية الاندماج الوجدانى يندمجان بعضهما مع بعض ، بحيث يتأتى عن ذلك قوام ذاتى واحد . وبتعبير آخر فإن المشارك وجدانيًا لا يكون مشاركًا فحسب ، بل ينحو أيضًا إلى الانصهار فى قوام الشخص أو الأشخاص الآخرين ، كما أن ذلك الشخص الآخر أو الأشخاص الآخرين ينصهرون بدورهم فى بوتقة الوجدان لدى ذلك الشخص المشارك وجدانيًا معهم .

ثانيًا ــ التمركز الوجدانى فى اللحظة الراهنة : ففى حالة الاندماج الوجدانى بين الطرفين ، يكون التركيز الوجدانى محصورًا فى إطار اللحظة الراهنة ، بمعنى أنه لا يكون هناك إدراك للماضى ، أو تشوُّف

للمستقبل ، أو بتعبير آخر لا يكون ثمة زمان إلا تلك اللحظة الراهنة التى يحياها المندمجون وجدانيًا بعضهم فى بعض .

ثالثًا ــ فقدان الإدراك المكانى : وعلى النحو نفسه ، فإن المندمجين وجدانيًا لا يدركون شيئًا مما حولهم . فكل وجودهم ينحصر فى الموقف الوجدانى الذى يأخذ بهم كل مأخذ ، بحيث لا يتبقى من قدرتهم الإدراكية ما يساعدهم على إدراك ما حولهم من أشياء وأشخاص .

رابعًا ــ فقدان الذاكرة : وحيث إن كل الطاقة النفسية تتركز فى الواقع الاندماجى ، فإن المشتركين فى هذا الاندماج الوجدانى يفقدون القدرة على تذكر أى شىء . فإذا ما سئلوا عن أى واقعة حدثت لهم فى الماضى ، فإنهم لا يستطيعون تذكُّرها . وأكثر من هذا فحتى أسماء الأشخاص الذين يعرفونهم جيدًا تنوه من ذاكرتهم ، أو تختلط بعضها مع بعض .

خامسًا ــ فقدان القدرة على الحركة ومزاولة النشاط المعتاد : ويتواكب مع المشاركة الوجدانية الاندماجية ، العجز عن القيام بأى نشاط أو عن تناول الأشياء ، أو النهوض بأى مهمة ، كائنة ما تكون حتى أبسطها وأيسرها . وفى بعض الأحيان لا يستطيع المندمج وجدانيًا حتى تناول كوب الماء الموضوع أمامه ، بل يكون فى حاجة إلى من يرفعه حتى شفتيه ليشرب .

التفسير بالتناغم :

ومن التفسيرات التى يمكن أن نتناولها بإزاء المشاركة الوجدانية ، التفسير بالتناغم الوجدانى . والواقع أن هذه الحالة التناغمية تتصف بمجموعة من الخصائص التى نستطيع تقديمها على النحو التالى :

www.dvd4arab.com

أولاً ـ التناغم الشامل : فالجمهرة التى تلتئم نتيجة حدوث موقف معين ، تسرى فى قوامها مشاعر وجدانية تشبه إلى حد كبير سريان الكهرباء فى مساحات كبيرة من المادة التى تسمح بسريانها فيها ، ويكون ذلك السريان متصفًا بالفُجاءة وبالسرعة المذهلة . فسواء أكان التناغم الوجدانى السارى فى قوام الجمهرة ، هو تناغم الخوف ، أم تناغم الحزن ، أم تناغم الفرح والابتهاج ، فإنه يعُم الأشخاص الذين يلتئمون فى نطاق الجمهرة ، ويكون التناغم السارى فيها عامًّا وشاملاً لجميع الأفراد بالتساوى ، أى أن الجميع يكونون متناغمين بعضهم مع بعض بنفس القدر .

ثانيًا ـ ميكانيكية التناغم : والواقع أن التناغم الوجدانى الذى يشمل الجمهرة كلها ، يكون تناغمًا ميكانيكيًا ، بمعنى أنه لا يكون خاضعًا لمقْود أى فرد من أفراد الجماعة ، بل إنه لا يكون بحاجة إلى من يتزعم الموقف ، أو أن يوجهه بالإثارة أو بالتحميس أو بالتهدئة . فالكل يكونون خاضعين لذلك السريان الوجدانى ، وكأن جميع أفراد الجمهرة قد صاروا أشياء خالية من الإرادة أو من التأثير فى مسيرة الموقف الوجدانى . فجميعهم يخضعون لمنطق غير منطقهم الشخصى ، هو منطق العاطفة ، إذا كان للعاطفة منطق تستهدى به .

ثالثًا ـ الاندفاع بغير رَوية : ويتأتى عن التناغم الوجدانى ، ما نسميه الاندفاع اللاإرادى . فما تتخذه الجمهرة من مواقف أو من تصرفات ، يكون اندفاعًا غير متعيّن الاتجاه . فالجمهرة تتجه نحو أى اتجاه بغير رَوية أو تمييز للنتائج . فلقد يكون اندفاعها شبيهًا باندفاع بعض الحشرات نحو النار حيث تهلك . فهى يمكن أن تندفع نحو التخريب أو نحو الانتحار الجماعى ، بغير وعى من جانبها بما سوف تنتهى إليه ، أو بما سوف تتعرض له من قضاء النحْب والهلاك الأكيد .

رابعًا ـ انصهار الفردية فى الجماعية : والتناغم الوجدانى فى الجمهرة يحمل فى طياته أيضًا ضياع معالم الفردية وذوبانها فى الجماعية . وبتعبير آخر فإن أيًّا من أفراد الجمهرة ، لم يكن ليقوم بالتصرفات نفسها التى يضطلع بها وهو فى نطاق الجمهرة المنفعلة لو كان وحده . فهو يستحيل من كونه شخصًا ذا إرادة خاصة به ، إلى مجرد أداة تستخدمها الجماعة فيما تنخرط فيه من انفعال وتناغم وجدانى .

خامسًا ـ الندم بعد العدم : ويعد أن ينسلخ المرء من قوام الجمهرة ، أو قُلْ بعد أن يستقل بشخصيته مرة أخرى ، وينزاح عنه كابوس الجماعية المتجمهرة ، فإنه يأخذ فى محاسبة نفسه بعد الإفاقة من تلك الاندماجية الجمهرية ، على ما انخرط فيه من أفعال يندم عليها ، أو يندهش ؛ لأنه لا يكاد يصدق أنه هو الذى أتى بها أو ساعد على الإتيان بها .

التفسير بالموقف :

وفى نهاية هذا الفصل نقدم التفسير الأخير ، وهو التفسير بالموقف ، الذى نقدم أهم ملامحه على النحو التالى :

أولاً ـ موضوعية المشاركة الوجدانية : فالواقع أن المشاركة الوجدانية ، قد تكون مرتبطة بالموقف الموضوعى ومحكومة به . فالمشارك وجدانيًا يقف على مقومات الموقف الذى يهز مشاعره الوجدانية ، وبالتالى فإن إدراكه له يعمل على اهتزاز أوتار قلبه ، ويحمله على المشاركة بإيجابية فى الموقف الوجدانى .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ــ تناسب المشاركة الوجدانية مع قوة الموقف : وفى المشاركة الوجدانية التى نفسرها فى ضوء قوة الموقف وفاعليته ، فإن المرء يبدى من المشاركة الوجدانية بقدر ما يستدعيه بغير زيادة أو نقصان . وذلك بفرض أنه شخصية سوية . ذلك أن الشخصية التى لا تتمتع بالاتزان الوجدانى ، إما أن تبالغ فى المشاركة الوجدانية أكثر مما يستحقه الموقف ، وإما أن تقدم مشاركة وجدانية أقل مما يستدعيه ، فتبدى برودًا وجدانيًا أو قدرًا من الانفعال الوجدانى أقل مما يستحقه .

ثالثًا ــ تزايل المشاركة الوجدانية مع تزايل الموقف أو خفوت حدته : فالشخص المشارك وجدانيًا ، لا يظل فى حالة المشاركة الوجدانية ؛ حتى بعد أن ينقضى الموقف الذى استدعى تلك المشاركة ، بل إنه يبدى المشاركة الوجدانية بقدر استدامة الموقف الذى استدعاها . فالشخص الذى يذهب للتعزية مثلاً ، يستجيب وجدانيًا للموقف . فالبكاء والعويل يهزان أوتار قلبه ، وقد يؤدى ذلك الاهتزاز الوجدانى لديه إلى ذرفه للدموع أو إلى التلبس بملامح الوجه الحزينة . وإذا كان المقام مقام سرور وفرح ، فإن الشخص المشارك فى الفرح ، يحس بالانشراح ، فتنتشر على وجهه ملامح البِشْر والسعادة . ولكنه بعد مغادرة المكان ، وبالتالى بعد تزايل الموقف الذى استدعى حزنه أو فرحه ، فإنه يتوقف عن المشاركة الوجدانية . بيد أن ذلك التوقف لا يحدث فجأة ، بل يحدث بالتدريج . فهو يظل حزينًا أو فرحًا لبعض الوقت بعد انصرافه من الموقف إلى أن يتلاشى تأثره أو فرحه تمامًا .

رابعًا ــ تقييم الموقف بعد انتهاء المشاركة الوجدانية : وبعد انقضاء الموقف الذى استدعى حدوث المشاركة الوجدانية ، فإن المرء يأخذ فى تقييمه . على أن الناس يتباينون فيما يتعلق بمدى القدرة على التقييم ، وعلى انتهاج الطريقة السليمة بإزائه . ولكن من المؤكد أن

جميع الناس ــ بغض النظر عن مستوياتهم الثقافية أو سلامة أجهزتهم النفسية ــ يقومون بالعملية التقييمية لما انخرطوا فيه من مشاركة وجدانية . فالواحد منهم يتساءل عن مدى ملاءمة مشاركته الوجدانية للمقام ، وهل كان مبالغًا فيها ، أم أنها كانت فى الحدود المناسبة ، إلى غير ذلك من جوانب تقييمية .

خامسًا ــ المشاركة الوجدانية التذكرية : وبعد وقت يقصر أو يطول ، فإن المرء ينخرط على نحو أو آخر فى المشاركة الوجدانية عن بُعْد ، وذلك بتذكُّر الموقف . وهو بهذا التذكر يعيد مسرح الأحداث من جديد إلى ذهنه ، فيعيد الماضى ويحيله إلى حاضر تذكرى . وقد يندمج فى هذا الموقف التذكرى بحيث يجعل ذلك الماضى حيًّا إلى حد يقرب من الموقف الأصلى الذى عاشه . ومن ثم فإنه قد ينخرط فى البكاء أو فى الخوف أو فى الفرح حسب متطلبات الموقف الوجدانى التذكرى . ولكن هذا الموقف الوجدانى التذكرى يكون فى الغالب أقل متانة وتماسكًا وقوة وتأثيرًا فى قلب المرء من الموقف الأصلى الذى نشأت عنه المشاركة الوجدانية .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الحادى عشر
اللاشعور والعاطفة

اللاشعور فى مقابل الذاكرة :

من الحقائق المعروفة ، أن الذاكرة هى مخزن الأفكار والوقائع والأحداث ، وأن اللاشعور هو مخزن الخبرات الوجدانية التى لم تجد الفرصة أمامها للبزوغ من نطاق الكمون إلى نطاق السلوك البادى للعيان . ولعل السؤال الذى يفرض نفسه هو : أليست هناك علاقات وثيقة قائمة فيما بين الذاكرة واللاشعور ؟ إننا نستطيع أن نزعم أن ثمة علاقات وثيقة فيما بين هذين الجهازين لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ اشتراك الذاكرة واللاشعور فى خاصية تخزين الخبرات : فكما أن الذاكرة تقوم بتخزين الذكريات ، كذا فإن اللاشعور يقوم بتخزين الانطباعات الوجدانية . ولكن الفرق بين النوعين من التخزين ، هو أن التخزين التذكرى يضعف مع الوقت ، بمعنى أن المخزونات التذكرية تتضاءل إذا لم تجد لها دعمًا من الخارج ، وسندًا يعمل على تجديدها باستمرار . أما المخزونات الانطباعية الوجدانية المتعلقة بالخبرات الوجدانية ؛ فإنها تظل معتملة فى دخيلة المرء بعيدًا عن الأضواء الواعية الشعورية . وأكثر من هذا فإن المكبوتات اللاشعورية تتفاعل فيما بينها ، أو بتعبير آخر تتلاقح فيما بينها ، فيتأتى عن تفاعلها أو عن تلاقحها أجيال جديدة تتفتق عن تلك

الخبرات الأصلية وتظل حية فى نطاق اللاشعور بعيدًا عن المجال الشعورى الواعى .

ثانيًا ـ قوة الذاكرة دليل على الصحة النفسية ، أما قوة اللاشعور فهى دليل على الانحراف عن السوية : فبينما يوصف الشخص صاحب الذاكرة القوية بأنه شخص متمتع بالصحة العقلية والنفسية الجيدة ، فإن زيادة أو تضخم المكبوتات اللاشعورية فى اللاشعور يعتبر شاهدًا على الانحراف النفسى . ذلك أن تلك المكبوتات تضغط على جدار الشخصية ، وتفقدها اتزانها ، وتتبدى فى مظاهر الانحراف عن الصحة النفسية السوية .

ثالثًا ـ مدى التحكم الإرادى فى الذاكرة واللاشعور : فبينما يتسنى شحن الذاكرة بالمتذكرات عن طريق الإرادة من جهة ، وعن طريق التلقائية من جهة أخرى ، فإن التعامل مع اللاشعور لا يتأتى بوساطة الإرادة ، بل يحدث بعيدًا عن مقاصد المرء ، وفى غفلة من أمره .

رابعًا ـ التأثير المتبادل بين اللاشعور والذاكرة : وعلى الرغم من أننا نميز بين الذاكرة واللاشعور ، بحيث نجعل لكل منهما كيانًا قائمًا بذاته ، فإن ثمة تفاعلاً أو تأثيرًا متبادلاً فيما بينهما . فاللاشعور بما يختزنه من خبرات غير سارة ، يعمل على تخبئة الذكريات المتعلقة بتلك الخبرات المكدرة . وكذا فإن تذكر بعض الذكريات التى لها ارتباط ببعض المخزونات اللاشعورية المكدرة ، يعمل على إهاجتها ، فيحس المرء بالاكتئاب وهبوط المعنوية ، وذلك لأن ما يتذكره بوعيه ، يؤدى إلى ثوران المكبوتات اللاشعورية ، وما يترتب على ذلك الثوران من اضطرابات فى الجهاز العصبى ، وفى إفراز هورمونات بعض الغدد الصماء .

Looloo
www.dvd4arab.com

خامسًا ــ العلاقات المحتملة بين اللاشعور والذاكرة : هناك احتمالان يتعلقان بالعلاقات القائمة فيما بين اللاشعور والذاكرة : الاحتمال الأول علاقة الوحْدة والتطابق . ووفقًا لهذا الاحتمال فإننا نقول : إن اللاشعور والذاكرة هما فى الواقع جهاز واحد وليسا جهازين منفصلين . فكما أن العضو الواحد من أعضاء الجسم يمكن أن يضطلع بوظيفتين أو أكثر ، كذا فإن اللاشعور أو جهاز التخزين اللاشعورى ، مضافًا إليه الذاكرة وهى جهاز التخزين الشعورى ، لا يعدوان عن أن يكونا جهازًا واحدًا يضطلع بوظيفتين متباينتين . أما الاحتمال الثانى فهو أن اللاشعور جهاز خاص قائم برأسه مباين للذاكرة ، وأن له مركزًا معينًا بالمخ كما ذهب إلى ذلك فرويد نفسه ، بينما تحتل الذاكرة موقعًا آخر بالمخ . وبذا فإن لكل من هذين الجهازين قوامًا مستقلاً عن قوام الجهاز الآخر .

تكاملية الشعور واللاشعور :

على الرغم من أن لكل من الشعور واللاشعور وظيفة مباينة لوظيفة الآخر ، فإن ثمة تكاملاً فيما بين هذين الجهازين لعلنا نلقى الضوء عليه لنتبين جوانبه على النحو التالى :

أولاً ــ من حيث المَصَب السلوكى : فالواقع أن المقومات الشعورية والمقومات اللاشعورية ، ذات مصب واحد هو سلوك المرء الداخلى وسلوكه الخارجى . فما نحيكه فى أذهاننا من أفكار ، وما ننسجه من عواطف ، وما نعتزم القيام به من أعمال ، وهى جميعًا تشكّل السلوك الداخلى ، ثم ما ننطق به أو نكتبه من كلام ، أو ما نقدمه ونعبر عنه من عواطف ، وما نضطلع به من أعمال ، وما نتركه من آثار فى الواقع من حولنا ، وهى جميعًا تشكل السلوك الخارجى ... نقول : إن

المقومات الشعورية والمقومات اللاشعورية تصب جميعًا فى مصب واحد هو الأنشطة السلوكية الداخلية والأنشطة السلوكية الخارجية .

ثانيًا ــ ما لا يحتمله الشعور يُخَزَّن باللاشعور : فالواقع أن اللاشعور يعتبر صمام الأمان بالنسبة للشعور . فما لا نستطيع احتماله والوعى به من أفكار أو من صدمات أو مواقف صعبة ، ينقله الشعور إلى اللاشعور حيث يخفيه بعيدًا عن نطاق الوعى . فاللاشعور هو المخبأ الذى تحتمى فيه شخصية المرء حتى تظل فى مأمن من الانهيار العصبى . وبتعبير آخر فلو لم يكن هناك لا شعور تخزن به الخبرات المكدّرة ، لَسَقَط المرء فى هوة الجنون أو لأقدم على إنهاء حياته بالانتحار .

ثالثًا ــ قيام الشعور بالتفريغ اللاشعورى : بيد أن الشعور لا يقف عند حدود تخزين الخبرات المكدّرة ، بل إنه يقوم أيضًا بوظيفة أخرى هى نزْح بعض الركامات اللاشعورية ، حتى يتسع اللاشعور لتخزين المزيد من المكبوتات ، وحتى لا يحدث انفجار فيه . ذلك أن اللاشعور إذا لم يتخفف من وقت لآخر مما ينوء تحت وطأته من مكبوتات ، فإنه ينفجر ، أو بتعبير آخر فإنه يُفضى إلى إصابة المرء بالجنون .

رابعًا ــ تخزين الخبرات المواتية أيضًا : على الرغم من أن غالبية الدارسين لعلم نفس الأغوار الداخلية بالشخصية ، قد اقتصروا على تعريف اللاشعور بأنه مخزن الخبرات المكدّرة دون الخبرات السارة ، فإننا نعتقد أن هذا الجهاز منوط بتخزين النوعين من الخبرات جميعًا . فهو لا يقتصر على تخزين الخبرات المكدّرة ، بل يقوم أيضًا بتخزين الخبرات السارة . فما نسميه بالاستبطان **Introspection** الذى يضطلع به الأصحاء نفسيًا ، وهو قراءة دخيلة المرء ، والوقوف على مقومات ثمينة أو على مواهب مطمورة بدخائلهم ، أو الوقوف على

Looloo
www.dvd4arab.com

تلك المقومات ذات القيمة العظيمة التى دعا سقراط إلى محاولة كشف النقاب عنها بشعاره المعروف « اعرف نفسك » ، إنما هو فى الوقع سَبْر لأغوار اللاشعور لاكتشاف المكنونات العظيمة المطمورة به بعيدًا عن وعى المرء باللاشعور . فبهذا التنقيب فى المجال اللاشعورى عن طريق الاستبطان ، يصير من الممكن الطفو بتلك المقومات الثمينة من لجة اللاشعور إلى سطح الشعور .

خامسًا ـ التجسيد اللاشعورى على المستوى الشعورى : فالواقع أن الأعمال العظيمة التى تتأتى للمبدعين ، كثيرًا ـ أو فى الغالب ـ تكون تعبيرًا عما يعتمل فى اللاشعور . ففى اللحظات التى يغوص فيها المبدع فى لجة لا شعوره ، يتسنى له ـ إذا ما حالفه الحظ ـ أن يكتشف فى تلك الأغوار السحيقة من شخصيته جواهر فكر ثمينة ، فيطفو بها إلى أرض الواقع ، ويعبر عنها بما يقوم بتصويره من روائع أدبية أو فلسفية أو علمية أو فنية . ومعنى هذا أن المبدع قد أحال ما هو لا شعورى إلى ما هو شعورى ، بل وعبّر عنه ، وأكسبه صيغًا يمكن الوقوف عليها بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس .

استقطابية اللاشعور :

الواقع أن اللاشعور ليس مجرد جهاز استقبال أو تخزين ، بل إنه يلعب أيضًا دورًا إيجابيًا ، وهو الدور الاستقطابى ، أعنى امتصاص المقوّمات الخارجية ، سواء تلك التى لا يتحملها الشعور ، أو تلك التى يعجز عن استيعابها ، أو تلك التى لا يستطيع الإفادة منها فى اللحظة الراهنة التى يتقبلها فيها . فهو يقوم بالحفاظ عليها حتى يأتى أوان الإفادة منها وتوظيفها فى الحياة . ولعلنا نقوم بإلقاء الضوء على هذه الوظيفة الاستقطابية حتى نتبين ملامحها على النحو التالى :

أولاً ـ استقطاب الصدمات الفجائية : فما لا يستطيع المرء احتماله من صدمات مفاجئة ، فإن اللاشعور يقوم باستقطابه ، ويخبئه بعيدًا عن الوعى الشعورى . ولقد يكون ذلك الاستقطاب مصحوبًا ببعض المظاهر الجسمية كالزيادة فى إفرازات الهورمونات ، أو التعرض لبعض حالات الإغماء ، وهى حالات تساعد قوام المرء على تحمل تلك الصدمات المفاجئة . فالإغماء فى حد ذاته هو توقف الشعور عن العمل من شدة الصدمة . واستمرار حالة الإغماء لبعض الوقت يعنى إعطاء الشعور فرصة لالتقاط الأنفاس ، بينما يعمد اللاشعور إلى استقطاب الشحنة الانفعالية التى تسببها الصدمة الفجائية .

ثانيًا ـ تحقيق التوازن بين الحالة النفسية وبين الواقع الخارجى : فالوضع النفسى إذا ما تباين تباينًا جوهريًا عن الواقع الخارجى ، أو إذا لم يكن مهيأ لتقبل ذلك الواقع الخارجى الذى تغير فجأة ، فإن اللاشعور يلعب عندئذ دوره الاستقطابى . فهو يمتص ذلك التباين ويخفيه عن المستوى الواعى الشعورى لحين تهيئة الوضع النفسى لتقبله .

ثالثًا ـ امتصاص الفشل وإحلال الأمل محله : فمن الوظائف الاستقطابية المهمة التى يضطلع بها اللاشعور ، قيامه بامتصاص ما يبتلى به المرء من فشل فى حياته ، وإتاحة الفرص أمامه للنجاح فى المستقبل . وبتعبير آخر فإن اللاشعور يستقطب الفشل من جهة ، ويحل محله الأمل فى التعويض عن ذلك الفشل فى المستقبل من جهة أخرى .

رابعًا ـ التجهيز لطفرة قادمة : ولا يكتفى اللاشعور باستقطاب القوامات غير المواتية التى تصيب الجهاز النفسى للمرء ، بل إنه

Looloo
www.dvd4arab.com

بالإضافة إلى هذا يستجمع قواه بما يدخره من خبرات مواتية ، وذلك للقيام بقفزة عظيمة فى المستقبل عندما تتهيأ الفرص لذلك . وشاهد ذلك ما نشاهده فى حياة بعض الأفراد الذين يبتلون بالإحباطات والتخلف فى مجرى حياتهم ، ثم يُبْهرون الناس من حولهم بعد فترة تقصر أو تطول بما يقدمونه من أعمال عظيمة . فلا يكون هناك تفسير يمكن أن يجلى عن حقيقة أمرهم سوى أن اللاشعور قد لعب دورًا عظيمًا ، وذلك بتجميع القوى والضرب فى مناح مبهرة تضفى على المرء الإعجاب والاعتراف له بالتبريز والتفوق .

خامسًا ــ النهوض من السقطات النفسية : فمن الوظائف الاستقطابية التى يضطلع بها اللاشعور ، تلك الوظيفة الاستقطابية التى تتعلق بتقويم السلوك وتصحيحه . فهذا الجهاز النفسى يقوم بامتصاص المقومات النفسية المُعْوَجة ، حتى يتسنى تصحيح السلوك ، وتخليصه من البراثن التى لحقت به ، والتى أدت إلى اعوجاجه وانحرافه عن طريق السوية .

اللاشعور بين الاستيراد والتصدير :

يتضح مما سبق أن اللاشعور ليس مجرد مخزن تخزَّن به الخبرات الوجدانية ، بل إنه أيضًا جهاز نشيط يستقبل ويصدِّر ، ولعلنا نقوم بإلقاء الضوء على هذا الدور الاستقبالى التصديرى ، فتتبين جوانبه على النحو التالى :

أولا ــ تفاعل الخبرات تمهيدًا لتصديرها : فالواقع أن اللاشعور لا يستقبل الخبرات ــ سواء أكانت خبرات مكدِّرة أم خبرات سارة ــ لمجرد التخزين ، بل إنه يقوم بتجميعها ، ثم القيام بإحداث تفاعلات خبْرية فيما بينها . وتلك التفاعلات الخبرية أشبه ما تكون بالتفاعلات

الكيميائية التى يتأتى عنها مركَّبات خبْرية تكون أشد تعقيدًا كلما انخرطت فى تفاعلات جديدة . ولكن تلك التفاعلات لا تقصد لذاتها ، بل هى مرحلة وسيطة بين الاستقبال والتصدير . فما يتم تراكبه منها ، لا يظل مطمورًا بدخيلة المرء فى لا شعوره ، بل يجد له متنفسًا على المستوى الشعورى . ولقد أكد فرويد أن الدور الذى يلعبه اللاشعور فى حياة المرء وفى سلوكه ، أخطر من الدور الذى يلعبه الشعور الواعى .

ثانيًا ــ التصدير الخبْرى قد يكون جيدًا وقد يكون رديئًا : فكما أن التفاعلات التى تحدث فى باطن الأرض تُفْضى إلى تكوين مركَّبات خسيسة ومركَّبات ثمينة ، كذلك الحال بالنسبة لما يتم تراكبه من مركَّبات خبرية . فالبعض من تلك المركَّبات يتسم بالخسة ، بينما يتسم البعض الآخر منها بأنه ثمين وعظيم القيمة . ومن ثَمَّ فإن ما يعبِّر عنه فى السلوك الواعى من تلك المركَّبات التى تم تصنيعها أو تراكبها ، قد يكون بعضه خسيسًا أو رديئًا ، وبعضه االآخر ثمينًا أو جيدًا .

ثالثًا ــ دور النوم فى التصنيع الخبرى : فالكثير من حالات التفاعلات الخبرية بين ما تم استقباله من خبرات وما يتهيأ للتصدير الخبرى إلى المستوى الشعورى الواعى ، يتم والمرء فى حال النوم . ولكن هذا لا يعنى أن التصنيع الخِبْرى لِما تمَّ استقباله ولما يتهيأ للتصدير الخارجى ، لا يحدث فى أثناء اليقظة ، بل يعنى أننا حتى ونحن نَغُط فى النوم نقوم بذلك التصنيع أو التفاعل ، أو حتى قد نستطيع القول بأن ما يتم تصنيعه أو تفاعله فى أثناء النوم ، أكثر وأدق مما يتم تصنيعه أو تفاعله فى حال اليقظة .

Looloo
www.dvd4arab.com

دينامية اللاشعور :

الواقع أن اللاشعور بيده السلطان والهيمنة على الشخصية . فهو ينطلق من إرادته الشخصية - إذا صح التعبير - ولا يوجّه من إرادة المرء ، بل ولا يخضع لمشيئته . وعلى العكس من هذا فهو المسيطر على سلوك المرء الداخلى والخارجى على السواء . فيخطئ من يعتقد أن بمقدوره أن يتحكم فى سلوكه الداخلى أو فى سلوكه الخارجى تحكمًا تامًا . والصحيح أن نقول : إن اللاشعور يتحكم فى سلوكنا من جهة ، وإننا بإرادتنا الشخصية نتحكم فيه من جهة أخرى . ومعنى هذا أننا نتحكم نصف تحكُم فى قوامنا الذاتى .

وإذا اعترض معترض على كلامنا هذا ، فإننا نوجه إليه السؤال التالى : هل وأنت تغط فى النوم تكون متحكمًا فيما يصدر عنك من سلوك ، سواء أكان سلوكك محصورًا فى نطاقك الداخلى ، أم كانت له ملامح التصرفات الخارجية ، كأن تصدر صوتًا ، أو تهمهم ببعض الكلمات ، أو تصدر تنهدات ، أو تشخر ؟ طبعًا ستكون إجابتك بالنفى . ولكننا نعترف لك بأن المرحلة الأولى من النوم ، المتبدية فى توجهك إلى السرير واتخاذك الوضع المريح الذى يناسبك قبل النوم ، وحتى الأفكار التى تجيلها فى ذهنك قبل استغراقك فى النوم ، تكون تحت سيطرتك . ولكنك ما تكاد تستمر على هذه الحال من التمهيد للانخراط فى النوم ؛ حتى تجد نفسك قد استسلمت لسطان النوم الذى هو بتعبير آخر سلطان اللاشعور .

وأكثر من هذا فإن اللاشعور يظل موجّهًا لسلوكك أو صابغًا له بصبغة معينة يفرضها عليك . فإذا ظننت أنك فى أثناء يقظتك ، وفى أثناء مزاولتك وممارستك لعملك تكون فى حالة شعورية كاملة ،

فأنت مخطئ . ولعلنا نزعم أن حياتنا اليقظانة مشتملة على نسبة معينة من الشعور الواعى ، ونسبة أخرى قد لا تقل عنها من اللاشعور غير الواعى .

ومعنى هذا أن اللاشعور ينهج وفق دينامية مستقلة عما عداه . ولعلنا نقول : إن هذه الدينامية اللاشعورية قد بدأت فى نطاق اللاشعور العام ، وهو مباين للاشعور الذى ركز فرويد عليه دراساته السيكولوجية . فالجنين منذ اللحظة التى يتكوّن فيها فى بطن الأم ، وهو يمارس حياته ، وينهج فى طريق نموه بطريقة لا شعورية ، أى أنه لا يدرك ذاتيته . وحتى بعد أن يولد وينخرط فى مراحل النمو المتباينة ، فإن قوامه البيولوجى والفسيولوجى يعمل ويمارس نشاطه بطريقة لا شعورية . فنحن لا ندرك ولا نعلم شيئًا عن عملية الهدم والبناء التى تحدث فى خلايانا ، كما أننا لا ندرك العمليات التى تأتى بها أجهزتنا الجسمية ، كما لا ندرك العلاقات التى تنشأ بينها . وبعد انخراط المرء فى الواقع الاجتماعى ، يتشكل لديه اللاشعور الآخر الذى قام فرويد بكشف النقاب عنه ، وهو اللاشعور الذى تختزن به الخبرات العاطفية . وسواء تناولنا اللاشعور الأول المتّصف بالعمومية والشمولية ، أم تناولنا اللاشعور الوجدانى ، فإننا نستطيع أن نجزم بأنه مسوق بتلك الدينامية ، أى أنه منبعث من دخيلته فى استقلال عن عقل المرء وعن إرادته ، بل وعن عواطفه التى تطفو على سطح سلوكه الشخصى .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى عشر
العاطفة والصحة النفسية

عاطفة الحب :

يعتبر الحب جوهر الحياة النفسية والمنظّم لها والمعيار الذى تقاس فى ضوئه الصحة النفسية للمرء . ولعلنا نقوم فيما يلى بتقديم الأسباب التى تحملنا على الأخذ بهذا الفرض :

أولاً ـ شمولية الحب : فالحب يشمل جميع أنحاء الوجود الذى يتعامل معه المرء ، فهو يشمل الكون المادى المحسوس ، والكون الروحانى والمعنوى ، بل ويشمل الشخص نفسه . وبتعبير آخر فإن الحب هو الرابطة الحميمة التى تربط المرء بالوجود ، بل إن حبه للوجود سابق على معرفته له ، ووقوفه عليه .

ثانيًا ـ الحب هو الدَّفَّة التى تضبط السلوك : فالواقع أن الحب هو الذى يحدد مسار الشخصية فى الحياة ، ويعيّن الطابع العام لها ، كما يحدد ما تنتحى إليه من علاقات ، وما تستهدى به من مبادئ ، وما تستعين به من فلسفات حياتية . وباختصار فإن مدى ما يتمتع به المرء من حب ، يشير إلى النهج الذى يسلكه فى حياته ، والطريق الذى يختطُّه لنفسه ويسلكه .

ثالثًا ـ تحقيق الاتزان النفسى : والحب بما يتصف به من توظيف لواقع حياة المرء ، هو الذى يحدد مدى سويته النفسية . فكلما كان

توظيف الحب فى العلاقات الاجتماعية بأكثر حكمة ورَوية ، كان الحكم لصالح المرء بتمتعه بالسوية ، وبالصحة النفسية .

رابعًا ـ الحب والإقبال على الحياة : فعلى الرغم من أن الحب ليس العامل أو المقوّم الوحيد الذى يدفع بالمرء إلى ممارسة أنشطته فى الحياة ؛ فإنه بلا شك أهم تلك العوامل التى يتسلّح بها لخوض غمار الواقع . فهو بمثابة الطاقة التى تحفزه على العمل وبذل الجهد وإقامة العلاقات مع الناس الموجودين حول المرء ، وما تتسم به تلك العلاقات من خصائص متباينة .

خامسًا ـ التغلب على المشكلات : وطالما أن الأمر كذلك من حيث إن الحب هو الطاقة المبذولة لممارسة الحياة وخوْض غمارها ، فيستتبع هذا أن الحب يعتبر الأداة التى يستخدمها المرء لمجابهة المشكلات التى تعترض طريقه ، ولتذليل الصعاب التى تقف حجر عثرة أمامه ، ولاقتحام المواقف الخطرة التى تقف بإزائه .

ومما لاشك فيه أن الحب والكراهية صنوان لا يفترقان كما سبق أن قلنا . بيد أننا ننحو فى دراستنا دائمًا للجوانب النفسية إلى تناول الإيجابيات ، بينما لا نعتبر السلبيات سوى عدم وجود الإيجابيات . وبتعبير آخر فإن الشر الذى يمكن أن يتأتى عن الكراهية ، إنما هو مجرد ثمار لعدم توافر المقومات الإيجابية . فالكراهية هى انعدام الحب ، أو بتعبير أدق هى اختباء الحب . وما يترتب على هذا الاختباء من نتائج كالشتم والضرب والقتل وغير ذلك من نتائج . فتلك التصرفات ليست سوى توابع لانعدام توافر الحب فى الموقف العلائقى بين المرء والآخرين .

Looloo
www.dvd4arab.com

على أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الحب واللذة من جهة ، وارتباطًا وثيقًا بين الكراهية والألم من جهة أخرى . فعلى الرغم من أن الحب لا يرتبط باللذة دائمًا وفى كل موقف ، كما أن الكراهية لا ترتبط بالألم فى جميع الأحوال ، فإن منشأ الحب هو اللذة ، ومنشأ الكراهية هو الألم . ولكن ارتباط الحب بالألم ، أو ارتباط الكراهية باللذة ، ليس سوى نتيجة لاعتبارات حضارية وتربوية . فالطفل يواكب بين ما يُلذه وما يحبه ، ثم بين ما يؤلمه وما يكرهه . وحتى إذا نحن تناولنا اللذة والألم فى علاقتهما بالحب والكراهية ، فإننا نجد أن بعض الألم لذيذ ، وأن بعض اللذة مؤلم . فمن يتناولون السادية والماسوكية بالدراسة ، يكتشفون أن الماسوكى ـ وهو الشخص الذى يستمتع بما يوقع عليه من ألم ـ يستشف اللذة من إصابته بالألم ، ولكأنه يُوَحِّد بين اللذة والألم ويدمجهما بعضهما فى بعض . وبالتالى فإننا نستطيع أن نَخْلص إلى القول بأن الحب يرتبط باللذة التى هى لذة بالفعل ، وأيضًا بالألم ، الذى هو لذة كما هو الحال فى الماسوكية .

عاطفة اعتبار الذات :

وهذه العاطفة هى الطاقة الوجدانية التى يوجهها المرء إلى ذاته ويبلورها حولها . ولكن هناك مجموعة من الشروط المتعلقة بهذه العاطفة لابد من توافرها ؛ حتى يتسنى وصف المرء بأنه متمتع بالصحة النفسية الجيدة ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً ـ اتخاذ الموقف الوسط بين المبالغة والتحقير : فالواقع أن الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة ، لا يبالغ فى تقدير نفسه من جهة ، كما لا يبالغ فى التقليل من شأنه من جهة أخرى . فالموقف الوسط بين هذين الموقفين المتّسمين بالمبالغة ، هو موقف وسط بين

الغرور وبين تحقير الذات . ولكن ما يمكن أن يصدر عن المرء من تقدير لنفسه بالتعظيم أو بالتحقير ، لا يُعتد به دائمًا . فلقد ينعت المرء نفسه بالتحقير حتى يستحث الناس من حوله على تعظيمه ، وقد يعمد الشخص الذى يحتقر نفسه إلى تعظيم شأنه حتى يتسنى له بذلك تخبئة ما يحس به من إحساس بالحقارة . ومعنى هذا أن ثمة مفارقة بين الظاهر من السلوك ، وبين الحقائق أو الوقائع النفسية المعتملة فى قوام المرء .

ثانيًا ـ الانتحاء إلى التقييم الصحيح للذات : ومن شروط الصحة النفسية بإزاء عاطفة تقدير الذات ، أن يكون التقدير أو التقييم صحيحًا . ذلك أن العوامل اللاشعورية يمكن أن تلعب دورًا خطيرًا فى تزييف الحقيقة . فعلى الرغم من أن المرء يكون غير مقدّر لنفسه ، بل يكون محتقرًا ذاته ، فإن تلك العوامل اللاشعورية تلعب دورًا خداعًا ، فتغالط المرء ، وتبعد به عن التقييم الصحيح لشخصيته .

ثالثًا ـ عدم انحصار التقييم فى نطاق الذات دون الآخرين : فلكى يكون المرء سليمًا من الناحية النفسية ، ومتمتعًا بالصحة النفسية الجيدة ، فإن عليه ألا يقصر تقديره على ذاته دون الآخرين الذين يتعامل معهم . فالمتمتع بالصحة النفسية الجيدة هو ذاك الذى يعترف بالآخرين كما يعترف بنفسه ، ويقدّرهم كما يقدّر ذاته ، بل قل إنه الشخص الذى يتوخى العدالة فى التقدير ، فيضع نفسه فى موقعها الصحيح كعضو فى نطاق مجموعة . ولعلنا نقول : إن التقدير الصحيح للذات ، هو فى الواقع تقدير نسبى فى ضوء تقدير الآخرين . فهو يقدّر نفسه فى ضوء تقديره للآخرين ، أو هو يجعل من نفسه واحدًا بين الآخرين فى صف واحد ، ويأخذ فى ترتيبهم بطريقة موضوعية حيادية خالية من التحيز ومن التعصب .

Looloo
www.dvd4arab.com

عاطفة تقدير الآخرين :

وبعد أن عرضنا لتقدير المرء لذاته ، فإن علينا أن نتناول تقدير المرء للآخرين ، فنجد أن هناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر فى هذا النوع من التقدير لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

أولاً ـ الاتصاف بالموضوعية : فلكى يمكن وصف المرء بالصحة النفسية الجيدة ، فإنه يجب أن ينحو إلى تقدير الآخرين بغير تحيُّز أو تعصب . وبتعبير آخر فإن النظرة الموضوعية الحيادية هى النظرة التى لا تخضع لما يكون صدى للعوامل اللاشعورية . فلقد ثبت أن الكثير من الانحيازات والتعصبات تحدث نتيجة المتشابهات اللاشعورية . فلقد يحتقر المرء شخصًا ما لم يسبق له معرفته أو التعامل معه ، لأن ثمة تشابهًا بينه وبين شخص كان يحتقره . وعلى العكس من هذا فلقد يبدى المرء تقديرًا وتحيُّزًا لشخص ما لم يسبق له أن تعامل معه ، لا لشىء سوى أن ثمة شبهًا بينه وبين شخص ما سبق أن تعامل معه وكان يُكن له تقديرًا واحترامًا وحبًا . فإذا ما شاعت هذه النظرة فى حياة المرء وفى علاقاته بالآخرين ، فإن هذا يشير إلى إصابته بالاعوجاج النفسى ، وإلى أنه غير متمتّع بالصحة النفسية الجيدة .

ثانيًا ـ التعبير عن التقدير : ومن خصائص الشخصية المتّصفة بالصحة النفسية الجيدة ، التعبير عن التقدير . بيد أن التعبير يجب أن يتصف بمجموعة من الشروط . فيجب أن يجتنب المرء التعبير عن النقائص الموجودة فى سلوك الآخرين . ومن جهة ثانية يجب أن يكون التعبير عن التقدير بغير مبالغة . ذلك أن بعض المبالغين فى

التقدير يكون تعبيرهم المبالغ فيه دالاً على عكس ما يحسون به من تحقير للشخص الممتدح . ومن جهة ثالثة يجب أن يكون التعبير عن تقدير الآخرين مناسبًا للمقام ومناسبًا لحالتهم النفسية . ومن جهة رابعة يجب أن يكون التعبير عن تقدير الآخرين بالطريقة التى يتأتى عنها رفع معنويات الممدوحين ، ولا تودى إلى شعورهم بالغرور . وبتعبير آخر فإن من يعبر عن ارتياحه أو عن تقديره للآخرين يجب أن يوظف امتداحه التوظيف المناسب . أخيرًا فإن التعبير عن تقدير الآخرين يجب أن يكون منصبًا على وقائع يمكن تحديدها ، لا أن يكون تقديرًا أو مديحًا بغير مستندات يعتمد عليها .

ثالثًا ـ غَرضية تقدير الآخرين : ومن خصائص الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة ، أن يكون تعبيرها عن تقدير الآخرين ليس لتحقيق مصلحة ، أو للحصول على الرضا ، أو لمحاشاة غضب الشخص الممدوح . ذلك أن مثل هذا المديح يعتبر مداهنة وتملُّقًا . فالكثير من المرءوسين ينتحون هذا المنحى ، إما نتيجة الرغبة فى الحصول على رضاء الرئيس ، وما يترتب على هذا الرضاء من فوائد ماديّة أو أدبيّة ، وإما اتخاذه وسيلة للحماية من العقوبات التى يمكن أن يُوقعها الرئيس على المرءوس الذى يلهج بالثناء والمديح .

رابعًا ـ التباعد الزمنى : فلكى يكون التعبير عن تقدير الآخرين سديدًا وموظَّفًا التوظيف السليم ، وبالتالى يكون دالاً على تمتع الشخص المادح بالصحة النفسية الجيدة ، فإن عليه أن يحدد التوقيت المناسب للتعبير عن تقدير الشخص الممدوح . فالشخص السوى نفسيًا لا يقارب بين أوقات المديح ، بل يباعد بينها . وبتعبير آخر فإن التعبير عن تقدير الآخرين كلما كان متباعدًا أو شحيحًا ، كان ذلك أفضل ، بل إنه يكون معبّرًا عن تمتّع الشخص المعبّر عن تقديره بالصحة النفسية الجيدة .

Looloo
www.dvd4arab.com

خامسًا ـ تنويع التعبير والبُعد عن النمطية : فالواقع أن الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة هو ذاك الذى لا يكون خاضعًا لنمطية فى المديح وفى التعبير عن تقديره للآخرين . ذلك أن بعض الناس الذين لا يتمتعون بالصحة النفسية الجيدة ، يلتزمون ببعض الصيغ الممْجوجة والمكرَّرة للتعبير عن تقديرهم للآخرين ، فيلوكونها بغير تمييز بين شخص وآخر ، وبالتالى فإنهم يكونون قليلى الجدوى فيما يعبِّرون به عن تقديرهم لغيرهم ، بل إنهم يكونون ممجوجين ، ولا يعيرهم من يعبرون لهم عن تقديرهم أى التفات ، الأمر الذى يفُت فى عضُدهم ، ويصيبهم بالإحباط ، وما يترتب على شعورهم هذا بفقدان الثقة فى أنفسهم وفى الآخرين معًا .

عاطفة الانتماء :

من المعروف أن الإنسان يولد كائنًا بيولوجيًا ، ثم يستحيل بوساطة الاحتكاك بالبيئة الاجتماعية التى يحيا فى إطارها ، إلى كائن اجتماعى . ومن الممكن تفسير هذا التحول من الحالة البيولوجية البحتة إلى الحالة الاجتماعية ، بمجموعة من التفسيرات لعلنا نقوم بعرضها على النحو التالى :

أولاً ـ التفسير بالشَفْرات الخِبْرية : فلدى الفرد فى قوامه البيولوجى شَفْرات خِبْرية تضم فى نطاقها العواطف المخزنة والمختزلة التى تلقاها الفرد عن أسلافه القريبين والبعيدين على السواء . وبتعبير آخر فإن الفرد المولود لا يكون خالى الوفاض من الخبرات تمامًا ، بل يكون مشحونًا بالخبرات السلفية ، ولكنها تكون فى حالة كُمُون . ولا يكون على البيئة الاجتماعية سوى إحالة تلك الخبرات الكامنة من نطاق الكمون إلى نطاق الواقع الاجتماعى . ومعنى هذا أن

الانتماء لدى الشخص المتمتع بالسوية النفسية ، يكون بمثابة غريزة جبل عليها ، ولا يكتسبها من الواقع الاجتماعى المحيط به . صحيح أن ذلك الواقع الاجتماعى يضيف خبرات جديدة إلى ما سبق أن خُزِّن واختزل فى قوام الفرد ، ولكن هذا لا يكفى وحده لتفسير ميل المرء إلى الانتمائية وممارسته لها .

ثانيًا ـ التفسير بالاستعدادات : أما التفسير الثانى فهو التفسير بوجود استعدادات لدى الناس جميعًا ؛ لأن يوجهوا عواطفهم ويبلورها حول الناس من حولهم ، سواء أكانوا أفرادًا أم جماعات . فالشخصية السوية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة ، هى تلك التى باستطاعتها أن تقوم بتلك البلورة الوجدانية ، فتنتمى على نحو أو آخر إلى بعض الأفراد أو إلى بعض الجماعات . والفرق بين هذا التفسير بالاستعدادات وبين التفسير بالشفْرات ، هو أن هذا التفسير بالاستعدادات يعنى القابلية وليس الوراثة المحددة والجاهزة والمكتملة ومتعينة الملامح . فالمرء يكون قابلاً للانتماء ، وليس حاملاً بالفعل للانتماءات المتعينة .

ثالثًا ـ التفسير بالغريزة الجماعية : وهذا التفسير يذهب إلى القول بأن الإنسان يحمل فى قوامه غريزة الانتماء الجماعى . فهو ليس كائنًا فرديًا كما يعتقد البعض ، بمعنى أنه يكون شخصًا مُلتفًا حول نفسه ، ثم ينفتح على المجتمع المحيط به ، بل على العكس من هذا فهو ـ وفقًا لهذا التفسير ـ فإنه كائن اجتماعى قبل أن يكون كائنًا فرديًا . فالإحساس بالفردية يعتبر مرحلة تطورية تالية فى حياة الفرد إذا تسنى له أن ينعزل بعض الانعزال عن الجماعة التى ينخرط فيها وينتمى إليها . فالجماعية إذن سابقة على الفردية . ومعنى هذا أن الشخص سوى النفس والمتمتع بالصحة النفسية الجيدة هو ذاك الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

تعتمل لديه النزعة الجماعية بشكل أقوى من اعتمال النزعة الفردية . ذلك أن المحروم من النزعة الجماعية ، هو شخص سُلبت منه هذه النزعة ، وبالتالى فإنه صار شخصية منحرفة عن السوية النفسية .

عاطفة التمسك بالقيم :

ونأتى أخيرًا إلى العاطفة التى تحمل المرء على أن يتمسك بالقيم والمبادئ الأخلاقية الرفيعة ، بافتراض أنه شخصية متمتعة بالصحة النفسية الجيدة . ولعلنا نقوم باستعراض أنواع تلك القيم والمبادئ الأخلاقية التى يبلور الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة عواطفه حولها على النحو التالى :

أولاً ـ مبدأ عدم التناقض : فالواقع أن الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة هو ذاك الذى لا يكون ثمة تناقض بين دخيلته وبين ما يعلن تمسكه به من مبادئ أخلاقية وقيم . وبتعبير آخر فإن الشخص السوى نفسيًا هو ذاك الذى لا يكون بين جهازه النفسى وبين فكره الأخلاقى تناقض . ومن المعروف أن فرويد قد كشف النقاب عن أن الكثير من الشخصيات التى تعلن عن تمسكها بالمبادئ الأخلاقية العظيمة ، والتى تؤكد إيمانها بالقيم الرفيعة ، تحمل فى لا شعورها نقيض ما تعلنه على الملأ وعما تتحمس له ، ولا تكون فى الواقع مراوغة أو ممالئة أو منافقة ، بل تكون خباياها المطمورة فى نطاق لا شعورها غائبة عن وعيها وشعورها . فما يكون على مستوى الشعور شىء ، وما يكون على مستوى اللاشعور شىء آخر مناقض .

ثانيًا ـ اتساق الفكر والعاطفة : ومن جهة ثانية ، فإن الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة ، هى تلك الشخصية التى يكون فى قوامها انسجام بين العقل والعاطفة ، بمعنى أن ما تقتنع به من قيم

ومبادئ ، تكون شغوفة به ومتحمسة له . وبتعبير آخر فإن تلك الشخصية لا تكون على مستوى الاقتناع فحسب ، بل تكون على مستوى الإيمان أيضًا بالقيم والمبادئ الأخلاقية السامية .

ثالثًا ـ إقامة قنطرة بين الإيمان بالقيم والمبادئ وبين الممارسة السلوكية : ومن شروط الصحة النفسية الجيدة ، أن تكون القنطرة القائمة بين ما يؤمن به المرء وبين سلوكه الذى يعتمل فى داخليته وخارجيته ، قنطرة متينة . فلا يكون الإيمان فى واد ، والسلوك الممارس بالفعل فى وادٍ آخر .

رابعًا ـ التكيف للواقع الاجتماعى المتطور : فصاحب الشخصية المتمتع بالصحة النفسية الجيدة ، هو ذلك الشخص الذى يكون بمقدوره أن يتكيف للظروف الاجتماعية المتغيرة . ولكن هل يعنى هذا أن الشخص المتمتع بالصحة النفسية الجيدة يكون صاحب شخصية حربائية تتلوّن مع الاتجاهات المتباينة التى تحيط به أو تستجد تباعًا ؟ الواقع أن الشخصية الحربائية ليست شخصية سليمة النفس ، بل هى شخصية مريضة . ولكن الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة هى التى لا تنثى عن مبادئها ، ولكنها تأخذ فى اعتبارها أن المبادئ الأخلاقية والقيم ، إنما هى وسائل للحياة وليست هى الحياة ، بمعنى أن الطرائق التى تستخدم فيها القيم والمبادئ تتباين من شخص لآخر . فهى ليست جامدة وصُلْبة لا تلين ، بل هى متطورة أيضًا . والفرق بين شخص وآخر يتبدى فى مدى الوقوف على الخطوط العريضة الأساسية ، وتمييزها من الخطوط الفرعية بالمجتمع . فصاحب الشخصية الحربائية يتلون مع الفرعيات ، أما الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة ، فإنها تتكيف للأساسيات فحسب ، ولا تلين مع الفروع غير الأساسية . وبتعبير آخر فإن هذه الشخصية تكون

Looloo
www.dvd4arab.com

شخصية واقعية ومسيطرة على القيم والمبادئ التى تؤمن بها ، ولا تكون خاضعة خضوعًا أعمى لها .

خامسًا ـ العاطفة المستنيرة والمتبصرة بالعواقب : فالشخصية المتمتعة بالصحة النفسية الجيدة هى تلك الشخصية التى تتلحَّف بالنظرة المتفحصة إلى الماضى والحاضر والمستقبل . وهى بذلك تكون شخصية متطورة من جهة ، وشخصية تحسب حساب العواقب والنتائج من جهة أخرى . فهى لا تركن إلى القيم والمبادئ دون النظر إلى الواقع الذى كان والكائن والذى سوف يكون ، بل هى شخصية توازن بين التطورات الاجتماعية التى حدثت وتحدث وسوف تحدث ، ثم تتخذ القرارات الأخلاقية المتبصرة بإزائها . فهى شخصية تسيطر على الموقف . وتكون سيطرتها على الواقع شاهدًا على مدى تمتعها بالصحة النفسية الجيدة .

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر
العاطفة والتوافُق الاجتماعى

العاطفة والأسرة :

تعتبر الأسرة من أهم المجالات التى يجب أن يتبدى فيها التوافق الاجتماعى . والواقع أن هناك لَبْسًا فى استخدام لفظ « أسرة » ولفظ « عائلة » . فبينما ينصب لفظ « أسرة » على الوالدين والأجداد والأعمام والعمَّات والأخوال والخالات وباقى الأقارب ، ولفظ « عائلة » على الوالدين وأولادهما فحسب ، وذلك لأنهما يعولانهم ، فإن الاستخدام الدارج يعكس الوضع ، فيطلق لفظ « عائلة » على الأسرة الكبيرة التى تشمل الوالدين وباقى الأقرباء ، بينما يطلق لفظ « أسرة » على الوالدين وأبنائهما فحسب ، ونحن فى هذا المقام ننهج وَفْق المعنى الواسع والصحيح للَّفظ ، أعنى أن الأسرة تشمل الوالدين وأولادهما ، كما تشمل الأقرباء القريبين والأقرباء البعيدين على السواء .

ويتبدى التوافق الاجتماعى فى نطاق الأسرة بهذا المعنى الواسع فيما يتخذه الواحد من أفرادها من مواقف ، وما يتلبس به من اتجاهات ، وما يبديه من تصرفات . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض المناحى التى يتبدى فيها ذلك ومدى تحقيقه للتوافق الاجتماعى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ـ تبادل المودَّة والمجاملات : فالتوافق الاجتماعى يحب أن يتبدى فى نطاق الأسرة ، وذلك فيما يتبادله أفرادها من حب ، ومن تبادل للهدايا فى المناسبات ، ومن قيام بالزيارات المتبادلة من حين لآخر . والواقع أن الحضارة الحديثة قد عملت على التقليل من تبادل الزيارات ، بل إنها عملت أكثر من ذلك على انطفاء الحب وتخفيف التعلق بين القلوب واشتعال الشوق لعقد اللقاءات . ذلك أن الغالبية العظمى من الناس قد انصرفوا إلى قضاء الوقت الطويل أمام شاشات التليفزيون ، وفى الأماكن العامة . وبالتالى فإن التقليل من المقابلات بين أفراد الأسرة الواحدة يكاد يحيلهم إلى غرباء بعضهم عن بعض .

ثانيًا ـ سد حاجات المحتاجين : ومن مظاهر التوافق الاجتماعى الأسرى ، قيام الأغنياء من أفراد الأسرة الواحدة بسد احتياجات المحتاجين منها دون انتظار رد المبالغ المُنْفَقة عليهم . ناهيك عن التشمير عن ساعد الجد فى المناسبات الحرجة كالوفيات والكوارث ونحوها .

ثالثًا ـ الدفاع عن المظلومين : ويتبدى التوافق الاجتماعى ، أو بتعبير أدق التكافل الاجتماعى ، فيما يبذله ذوو الشأن من أفراد الأسرة من جهود للدفاع عن أصحاب الحقوق لدى الجهات الرسمية ، والكفاح لرفع المعاناة عن كاهلهم ، وتعويضهم عن الظلم الذى أصابهم .

رابعًا ـ قضاء المصالح وتبادل المنافع : فالأسرة الحريصة على تحقيق التكافل بين أفرادها ، تهتم بقضاء المصالح الخاصة بهم ، سواء أكانت مصالح مادية ، أم مصالح أدبية . فمن فى يده سلطة معينة من أفراد الأسرة ويستطيع قضاء مصلحة لأحد أفرادها ، فعليه

ألا يتواكل فى النهوض بذلك ، بل عليه أن يسارع بغير إبطاء فيقضيها . على أن من الواجب ألا يكون قضاء مصالح تلك الأسرة على حساب مصالح أشخاص آخرين من خارجها لهم أولوية فى قضائها دونهم . ذلك أن استيلاء شخص ما على حق شخص آخر أولى منه بقضاء مصلحته قبله ، يدخل فى إطار المحسوبيات البغيضة .

خامسًا ـ التدخل لدى الوقوع فى مأزق أو تحت طائلة القانون : فمن مظاهر التكافل الاجتماعى ، وبالتالى تحقيق التوافق الاجتماعى ، تدخل الأقرباء ووقوفهم صفًا واحدًا لمساندة من يتعرض للوقوع فى مأزق ، أو من يقع تحت طائلة القانون . بيد أننا نود أن ننبه إلى أن تدخل الأسرة بإزاء تورط أحد أفرادها فى مسئولية جنائية مثلاً ، يجب أن يكون فى حدود القانون ، مع الاحتياط من التهور والانفعال الأعمى الذى يزيد الطين بلة ، ويحمِّل المنفعل مسئوليات قانونية تضاعف من تعقيد الموقف .

العاطفة والأصدقاء :

علينا أن نحدد معنى الصداقة قبل أن نتعرض للدور الذى تضطلع به العاطفة فى علاقة الأصدقاء بعضهم ببعض على النحو التالى :

أولاً ـ الصداقة رابطة بين قلبين أو أكثر : فالواقع أن ثمة أنماطًا من الناس يأتلفون بعضهم مع بعض ، ويميلون عاطفيًا بعضهم لبعض ، بينما هناك أنماط أخرى لا يسود الانسجام النفسى بينهم ، ولا تلتقى قلوبهم حول محاور وجدانية مشتركة . فالأنماط التى تحس بالانسجام فيما بينها ، هى التى يمكن أن تعقد أواصر الصداقة بين أفرادها . وبتعبير آخر فإن الاستعداد النفسى يشكِّل الدعامة التى تقوم الصداقة عليها .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ــ الصداقة هدف فى ذاتها : والصداقة الحقيقية لا تكون وسيلة لتحقيق أغراض شخصية ، بل تكون هدفًا لإشباع حاجة وجدانية شخصية بين الصديقين . فكل منهما يرتشف من الصداقة ما يشبع تلك الحاجة النفسية المعتملة لديه . بيد أن الكثير مما يبدو اليوم فى هيئة الصداقة ، ليس سوى صداقة زائفة ، شأنها شأن العملة التى لها شكل العملة المشروعة ، بينما هى فى حقيقتها عملة زائفة .

ثالثًا ــ الصداقة عون فى وقت الضيق : فالصداقة الخليقة بهذا الاسم ، ليست مجرد تبادل المودة وإشباع حاجة معتملة فى قوام الصديقين ، بل هى أيضًا حافز للتضحية من أجل الصديق . فالصداقة حب وبذل وليست حبًا فحسب . وكلما كانت الصداقة أبعد غورًا فى القلب ، وأعمق اعتمالاً ، كانت التضحية التى يستعد الصديق لبذلها أبعد شأوًا ، بل إنها تكون بغير حدود تقف عندها .

رابعًا ــ الصداقة مشاركة وجدانية : فالصديق صدر حنون لصديقه ، وشريك له فى عواطفه وأحاسيسه . ذلك أنه يتحمل معه عبء الأحزان إذا حزن ، كما يخفف عن كاهله ما قد ينوء به من ضيقات . ناهيك عن أنه يشاركه فى أفراحه ، بغير أن تخالط مشاعره الغيرة أو الحقد لنجاح أحرزه صديقه ، أو أنه تفوق عليه فى مجال مشترك بينهما كالدراسة أو العمل .

خامسًا ــ الصداقة حماية من الشرور : فالصديق الخليق بهذه الصفة يحمى صديقه من المنزلقات الأخلاقية التى يمكن أن يتردى فيها . فإذا ما وجده قد بدأ فى الانزلاق فى هوة الشر ، أو على وشك أن يكون فريسة فى أيدى زمرة من الأشرار تدفع به إلى حمأة الرذائل أو الجرائم ، فإنه يقدم إليه النصح الذى قد يصل إلى حد الزجر

والتوبيخ ، وذلك حرصًا من جانبه على مصلحته . فالصداقة بهذا المعنى تأديب وتوجيه وتحذير من مغبَّة الوقوع فى براثن الفاسدين المفسدين كتجار المخدرات وأرباب السوابق والسكيرين والمعربدين ولاعبى القمار ونحوهم .

العاطفة والجيران :

تختلف العاطفة مع الجيران عن العاطفة بين الأصدقاء من عدة جوانب . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض ما تتصف به هذه العاطفة .

أولاً ــ الحياة المستقلة : فعلى الرغم من المودة التى يجب أن تكون شاملة للجيران بعضهم مع بعض ، فإن حماية استقلال كل أسرة وتفرُّدها وعدم الانصهار فى بوتقة الجار ، أو هدم الحدود القائمة فيما بين الجار وجاره ، يجب أن تصان وأن تستقر . وأكثر من هذا فإن الجار الذى يرغب فى هدم تلك الحواجز القائمة ، يجب صدُّه عن ذلك ووَقْفه عند حده . فالواقع أن الكثير من المشكلات تنشأ بين الجيران بعضهم وبعض نتيجة هدم تلك الأسوار التى كان يجب أن تظل قائمة بينهم . وبتعبير آخر ، فإن كل جار يعتبر وحدة قائمة بذاتها كالشأن بالنسبة للدول التى تحافظ كل دولة منها على حدودها ولا تسمح لجيرانها من الدول الأخرى باجتيازها . ومن الخطأ أن يعتقد الجار أنه لكى يتقرب من جاره ، فإنه يرفع الكُلْفة ويدعس شقته كلما رغب فى ذلك كأنها شقته شخصيًا .

ثانيًا ــ الأخذ والعطاء : وهذه العلاقة يجب أن تقنن أيضًا . ومن رأينا أن السُلف المالية والسُلَف الشيئية بين الجيران ، يجب أن تكون استثناء وفى الظروف الاضطرارية جدًا . ونأسف إذ نقول : إن الكثير من الجيران يتخاصمون ويتنازعون بسبب ما يستعيرونه من أشياء ،

www.dvd4arab.com

أو بسبب ما يقترضونه من مال ، ثم لا يردون الأشياء التى استعاروها ، ولا يسددون المال الذى اقترضوه . ونرى من جانبنا أن الجار الخليق بالاحترام ، هو ذاك الذى لا يستعير أى شىء ، والذى لا يقترض أى مال من جاره . ففى حدود إمكانياته يمارس حياته ويقضى مصالحه . وما ليس عنده من لوازم معيشية ، فعليه بالاستغناء عنها إلى أن يشتريها وتصير ملكًا خاصًّا له . وأسوأ جار هو ذاك الذى يقرع أبواب جيرانه لاستعارة أشياء أو لاستخدام التليفون ، أو لغير ذلك من شئون تقلقهم وتضايقهم منه .

ثالثًا ـ الحفاظ على الأسرار وتجنب القيل والقال : والجار الخليق بالاحترام والتقدير ، هو ذاك الذى لا يتخذ من سيرة جاره قصصًا للتسلية والترفيه مع الجيران الآخرين . فالواقع أن القيل والقال داء مستشر بين كثير من الجيران ، وبذا تنقلب الجيرة إلى عداء مستحكم قد يصل إلى حد تبادل الشتائم بل واللطمات أو حتى القتل . فلو أن كل جار اكتفى بشئونه الخاصة دون التطلع إلى شئون الآخرين ، لكان ذلك مدعاة إذن لسيادة الحب والاحترام بين الجيران بعضهم وبعض ، ولما تراكمت البلاغات التى تزدحم بها أقسام الشرطة .

رابعًا ـ نجدة الجار فى وقت الخطر : والجار الجيد ، هو ذاك الذى يندفع بغير توان لنجدة جاره الذى ألم به خطر كاشتعال حريق فى شقته ، أو إصابة أحد أفراد أسرته بمرض مفاجئ يتطلب نقله إلى المستشفى فورًا ، أو غير ذلك من مفاجآت تستدعى المسارعة بمد يد العون والمساهمة فى درء الخطر .

خامسًا ـ فض المنازعات بين الجيران : والجار الخليق بالتقدير والاحترام هو ذاك الذى يكون رسول سلام بين جيرانه . فهو لا يكتفى بأن يكون مسالمًا لجيرانه ، ولا يكون مصدرًا لنشر الخصومات فيما

بينهم ، بل يكون بمثابة المصلح والمسوّى للنزاعات التى تنشأ بين جارين أو أكثر ، ويكون شخصية حكيمة تعرف كيف تقنع وكيف تبث السلام والوئام بين المتخاصمين قبل أن تستفحل الخصومات وتُفْرخ أحقادًا خطيرة .

العاطفة فى مجال العمل :

إن العاطفة التى تعتمل فى نطاق العمل بين الزملاء بعضهم وبعض من جهة ، وبين الزملاء والرؤساء بعضهم وبعض من جهة أخرى ، يجب أن تتصف بمجموعة من الخصائص التى نقدمها على النحو التالى :

أولاً ـ عدم الخوض من الأمور الشخصية : فزميل العمل يجب أن لا يزج بنفسه فى الأمور الخاصة بزملائه ، وبخاصة تلك الأمور المتعلقة بأسرهم أو بعلاقاتهم خارج نطاق العمل . وبتعبير آخر فإن زميل العمل يجب أن يقْصر علاقاته بزملائه على ما يتعلق بالعمل ، دون التطرق إلى أمور أخرى بعيدة عن ذلك المجال .

ثانيًا ـ الحفاظ على أسرار العمل : فإذا كانت هناك أسرار اؤتمن عليها الموظف ، فعليه أن يحافظ عليها فى سرية تامة ، حتى بعيدًا عن متناول زملائه . ذلك أن زميل العمل يمكن أن يتجسس على زميله الذى يأمن له ويُطْلعه على أسرار مهمة كالمزايدات والمناقصات أو غير ذلك من أسرار يجب كتمانها وعدم البوح بها لأحد ، كائنًا من يكون إلا لمن لديه ترخيص بالاطلاع عليها .

ثالثًا ـ استثمار وقت العمل لصالح العمل وليس للترفيه : فعلى الرغم من أن المودّة يجب أن تكون هى السائدة بين زملاء العمل ، فإنها يجب ألا تؤدى إلى انزلاق العاملين إلى هوة تضييع الوقت سُدًى ،

Looloo
www.dvd4arab.com

والانخراط فى أحاديث للتسلية وترك مهام العمل بغير إنجاز . فالخليق بالعاميلن أن يركّزوا حبهم فى صميم العمل وليس فى الزملاء . فالهدف من تواجدهم بعضهم مع بعض فى مقر العمل ، هو العمل نفسه وليس الترفيه والتسلية . فليس من المعقول أن يستحيل مقر العمل إلى ملهى أو ناد للترفيه ، ولا يحتل فيه العمل سوى مكانة ثانوية . وبالمناسبة فإننا ننعى على البطالة المقنّعة التى استشرت فى كثيرٍ من المصالح الحكومية . وفى رأينا أن صرف بدل بطالة للعاطلين ، لهو أفضل بكثير من البطالة المقنّعة ، أو قل إنه أحلى المرّين ، أعنى أنه أفضل من إفساد العمل بكثرة المتسكعين فى الوزارات والدواوين بغير إسناد أى مسئولية إليهم ، وأفضل من البطالة الصريحة التى لا تساندها الدولة بتوفير الحد الأدنى من المال لتغطية نفقات المعيشة .

رابعًا ــ التمسك بالنظام والنظافة والجمال : فالواقع أن هذا الثالوث المتمثل فى النظام والنظافة والجمال ، يُضفى على المتذرع به ، الشعور بالسعادة ، كما يشع على الزملاء والمرءوسين والرؤساء إحساسًا بالراحة ، ولا شك أن النظام يعمل على راحة الأعصاب وعلى عدم التعرض للإرهاق برغم الإنجاز الكثير ، كما أن النظافة الشخصية ونظافة المكان الذى يمارس به العمل ، تعمل على الشعور بالراحة النفسية . وكذا فإن مراعاة المظهر الجميل ، سواء فى الملبس ، أم فى أدوات العمل ووسائل استخدامها ، أم فى طريقة الكلام وتبادل الأحاديث ، إنما تعمل جميعًا على الشعور بالبهجة والتعلق بالمكان والارتياح للتعامل مع الزملاء .

خامسًا ــ إشاعة السعادة فى القلوب : ومن خصائص الزميل المحبوب قدرته على أن يشيع روح السعادة والبهجة بين الناس المتعاملين معه ، سواء الجمهور أم الزملاء والمرءوسين والرؤساء . ناهيك عن أن شخصًا كهذا لا شك يعمل على إذابة ثلج التجافى بين الزملاء ، وذلك بتسليطه حرارة الود على علاقاتهم بعضهم ببعض . وزميل كهذا لا يحب أن يستأثر بحب الزملاء دونهم ، بل يعمل على نشر لوائه بينهم جميعًا ، ويرغب فى أن يسود الوداد جميع الناس وفى جميع الأوقات . فهو لا يكون عاملاً على تفريق القلوب بعضها عن بعض كما يفعل بعض العاملين ، كما أنه لا يدس الدسائس ، أو ينقل الأسرار ، أو يلوك القصص ، أو يختلق المواقف ، ويلوى عنق الحقائق ؛ حتى يعكر الصفو ، ويزعزع الثقة بين المحيطين به .

العاطفة فى الحياة العامة :

نقصد بالحياة العامة تلك العلاقات التى تنشأ بين المرء وبين التجار والباعة الجائلين ، أو بينه وبين عُمّال النظافة ، أو بينه وبين الركاب فى المواصلات العامة ، وباختصار تلك المواقف التى لا تتصف بالانتظام ، ولا تخضع لروتين معين . ولعلنا نقوم بتحديد الدور الذى تلعبه العاطفة فى تلك المجالات العامة على النحو التالى :

أولاً ــ فى البيع والشراء : فبمجرد التقاء البائع والمشترى ، فإن ثمة عاطفة معينة تلعب دورًا فى القيام بالصفقات التجارية صغيرها وكبيرها . والواقع أن الغالبية العظمى من التجار يدركون بما لديهم من قدرة حدسية فطرية ، طبيعة وشخصية المتعاملين معهم ، فيقومون بتفصيل نغماتهم الوجدانية وفق المقاس النفسى والوجدانى للزبون .

Looloo
www.dvd4arab.com

فهم يدركون أن بعض الزبائن يميلون إلى المرح فيضفون المرح على تعاملهم معهم ، كما يعلمون أن بعض الزبائن يفضلون الجد ، فيصبغون كلامهم بصبغة الجد والبعد عن الفكاهة . وكذا فإن الزبائن بدورهم يصوغون كلامهم ومواقفهم فى ضوء مدى قدرتهم على الوقوف على ما يعتمل فى قوام البائع من أفكار أو اتجاهات أو حالات نفسية .

ثانيًا ـ فى الشارع ووسائل المواصلات : لقد يظن البعض أن العلاقات العابرة التى تنشأ بين المارة بعضهم وبعض ، أو بين الركاب والكمسارى أو السائق أو بينه وبين الركاب الآخرين فى وسائل المواصلات العامة ، تخلو تمامًا من أى عاطفة . فهذا الرأى ليس صحيحًا . فنحن نتعامل بعواطفنا قبل أن نتعامل بعقولنا ، سواء فى العلاقات الدائمة ، أم فى العلاقات العابرة كتلك التى تقوم بيننا وبين من نصادفهم فى الشوارع أو فى وسائل المواصلات ، أو فى غير ذلك من أماكن عامة . وعلى المواطن الصالح أن يراعى أصول الذوق ، سواء أكان عاملاً بإحدى وسائل المواصلات ، أم كان من الركاب ، أم كان سائرًا على قدميه . فمراعاة الذوق السليم ، ومراعاة المصلحة العامة ، يشكلان أساسًا مهمًا فى توظيف العاطفة التوظيف السليم فى تلك العلاقات العابرة .

ثالثًا ـ فى المجالات الترفيهية : فمن الواجب أيضًا على من يرتاد الأماكن الترفيهية ، أن يراعى النغمات الوجدانية غير المنطوقة التى تشيع فى تلك المجالات . فمن الخطأ مثلاً أن يُحَدِّق المرء فى الناس الذين يرتادون الشواطئ ، أو أن يفرض نفسه عليهم ، أو أن يدخل فى مناقشات معهم ، أو أن يشترك فى أحاديث خاصة تدور بينهم ، كما

أن المشاهد لفيلم فى إحدى دور العرض يجب أن يلتزم الصمت . وإذا انفعل فليكن تعبيره عن انفعاله مناسبًا دون صخب . وكذا فإن المشاهد لإحدى مباريات كرة القدم بأحد الأندية ، يجب أن يسيطر على انفعالاته بقدر الإمكان ، فلا يتورط فى إمطار أحد اللاعبين بالشتائم ، أو قذفه بالطوب ، وفى الملاهى يجب على مرتادها ألا يسخر من أحد الجالسين أو اللاعبين ، كأن يسخر من رجل قصير القامة جدًا ، أو من سيدة بدينة ، إلى غير ذلك من تصرفات أو مواقف تدل على توظيف العاطفة توظيفًا رديئًا .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الرابع عشر
العاطفة والمثل العليا

المثل العليا التاريخية :

يتمتع الإنسان بقدرة كبيرة على تلقى الإيحاءات وعلى تقليد الآخرين . فالطفل والمراهق والشاب لا يمارسون حياتهم دون أن يتأثروا بالآخرين ، بل إنهم يستلهمون الشخصيات التاريخية التى يطّلعون على سيَرها أو يتتبعون أخبارها ، ويقفون على ما يعجبهم فى الشخصيات التى يتعاملون معها ، أو التى يتخيلون وجودها متجسدة فى واقع الحياة ، أو تلك المثل العليا التى يجردونها تمامًا من الشخصيات الآدمية فتستحيل إلى مثل عليا أخلاقية أو ثقافية .

وإذا نحن تناولنا الدور الذى تلعبه العاطفة بإزاء المثل العليا التى يضرب المرء فى إثرها ، فإننا نجد أن هذا الدور يمكن أن يتحدد على النحو التالى :

أولاً ـ الشعور بالمفارقة بين المثل الأعلى وبين واقع المرء : فأول خطوة تتخذها العاطفة بإزاء المثل الأعلى ، هى الشعور بالنقص ، أى أن المثل الأعلى يكون أعلى مستوى مما استطاع المرء بلوغه بالفعل . والواقع أن من الخطأ الاعتقاد بأن الشعور بالنقص دليل على التخاذل ، أو أن من واجب المرء أن يتخلّص من الشعور بالنقص . فما يجب أن ينهج المرء وَفْقه ، لا أن يَذْب عن نفسه هذا

الشعور ، بل أن يضطلع بالإجراءات التى يلغى بها تلك المفارقة التى يحس بها ، ويقضى على ذلك البَوْن الذى يفصل بينه وبين المثل الأعلى الذى يقارن نفسه به .

ثانيًا ـ ترجمة الشعور العام إلى صور ذهنية : فبينما نجد أن الشعور بالمفارقة بين المرء وبين المثل الأعلى ، ناجم عن النظرة الكلية أو الحدسية أو الانبهارية إلى المثل الأعلى ، فإن الخطوة التى تتلو ذلك تتمثل فى عقْلنة تلك المقارنة أو المفاضلة . فالمرء يقوم بتفحص ما عليه حاله ، وما عليه حال المثل الأعلى الذى يقْرن نفسه به . وبتعبير آخر فإنه يحيل النظرة العامة إلى نظرة تفصيلية . فهو لا يكتفى بالحكم العام الذى يصدره على نفسه ، بل يبحث الموقف بعناية ورَوِيّة بحيث يستشف منه حيثيات ذلك الحكم ، ويقف على المقومات التى ينبنى عليها .

ثالثًا ـ البحث عن الوسائل الكفيلة بالارتفاع إلى مستوى المثل الأعلى : وبعد ذلك يقوم المرء باستشفاف الطريق الكفيل بتوصيله إلى مستوى ذلك المثل الأعلى . ولا يكون ذلك الطريق عبارة عن تقبُّل للإلهامات أو التقليد غير المتبصر فحسب ، بل إنه تقبُّل إيجابى وتقليد لكل تفصيلة من التفصيلات المنهجية الكفيلة بسد الثُغْرة بين المثل الأعلى وبين المرء . وبتعبير آخر فإن التقبُّل الإيحائى والتقليدى لا يكون من الكل إلى التفاصيل ، بل يكون بتناول التفاصيل الواحدة منها بعد الأخرى ، وسد الثغرة المتعلقة بها بالمقارنة بواقع المرء بإزائها .

والواقع أن ما يدفع بالطفل والمراهق والشاب إلى اتخاذ المُثُل العليا التاريخية نبراسًا لهم ؛ لكى يقتفوا آثارها ، ويبلغوا مقامها الذى بلغته ، يرجع إلى عدة أسباب لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالى :

Looloo
www.dvd4arab.com

أولاً ــ النظرة الموضوعية : فالواقع أن من السهولة بمكان ، تناول المثل الأعلى التاريخى بطريقة موضوعية ، تمامًا كما يتناول المرء شيئًا ما من الأشياء ، ويضعه بين يديه ، ويركز انتباهه فيه . ذلك أن المثل الأعلى التاريخى يكون مُحدد المعالم ، وغير قابل للتغير . فهو ماض فات ، ولكن من الممكن تناوله موضوعيًا باعتباره ذاتًا خاصة بواقع ثابت لا يتحول ولا يتغير . فالفرق بين الشخصية التاريخية وبين الشخصية المعاصرة ، أن الشخصية التاريخية لا يمكن أن تستحيل من فئة الأخيار إلى فئة الأشرار ، أو من فئة الأبطال إلى فئة المجرمين ، وذلك لأنها قد ختمت حياتها بالفعل باعتبارها شخصية خيِّرة أو شخصية بطلة ، ولا سبيل إلى تغيُّر معالمها أو الحط من مقامها .

ثانيًا ــ ما يضفيه الخيال : والمثل الأعلى التاريخى ، وقد صار بين يدى الطفل أو المراهق أو الشاب ، فإن الواحد منهم يصنع به ما يشاء . فهو يستطيع أن يضخمه ، أو أن يُضفى عليه من الصفات ما يميل إليه ، وما يعجب به . ومعنى هذا أن الخيال يلعب دورًا مهمًا فيما يتناوله الطفل أو المراهق أو الشاب ، أو فيما يتخذه مثلاً أعلى له .

ثالثًا ــ تمتُّع المثل الأعلى التاريخى بالنقاء : فالمثل الأعلى الذى يضعه الطفل أو المراهق أو الشاب نُصب عينيه ، يكون خاليًا من أية شائبة تشُوبه . وحتى النقائص التى تكون ملتصقة به ، تستحيل بالخيال الخصب الذى يتمتع به كل منهم ، إلى مزايا أو حتى إلى بطولات . فيشترط لكى تكون الشخصية التاريخية مثلاً أعلى ، أن تكون نقية من أى شائبة تشوبها ، سواء كانت شائبة أخلاقية أو غير أخلاقية .

المثل العليا المعاصرة :

أما بالنسبة للمثل العليا المعاصرة ، فإنها تتمثل فى الشخصيات التى يتعامل معها المرء أو يتتبع أخبارها على شاشات التليفزيون ، أو يستمع إلى أخبارها بالإذاعة ، أو يقرأ عنها على صفحات الجرائد والمجلات ، أو التى يتناقل الناس من حوله أخبارها . على أن المثل الأعلى المعاصر لابد أن يتصف بمجموعة من الخصائص التى علينا إلقاء الضوء عليها على النحو التالى :

أولاً ــ تقارب الأمزجة : فالمثل الأعلى الذى يتوخّاه الطفل والمراهق والشاب ، يجب أن يكون متوائمًا مع نمطه المزاجى أو مع طابعه الشخصى . فثمة عدد محدد من أنماط الشخصية . وكل فرد منخرط فى نمط منها ينجذب إلى من ينخرطون فى إطاره وينسجم معهم . وبالعكس فإن أفراد النمط المغاير يتنافرون مع ما لا ينسجم معهم . فالمثل الأعلى الذى يتوخاه المرء يكون إذن من ذات نمطه الذى ينتمى إليه .

ثانيًا ــ الفئة العمرية : ومن الشروط الواجب توافرها فى المثل الأعلى المعاصر ، أن يكون قريبًا من الفئة العمرية التى يمر بها المرء ، أو التى وصل إليها بالفعل . فالطفل يتخذ طفلاً قريبًا من سنه مثلاً أعلى له ، والمراهق يتخذ مراهقًا فى سنه مثلاً أعلى له ، والشاب يتخذ شابًا مقاربًا لعمره مثلاً أعلى له . ناهيك عن الكهول والشيوخ ، فإنهم يتخذون مثلاً عليا لهم من الكهول والشيوخ .

ثالثًا ــ الفئة الجنسية : وعلى النحو نفسه فإن الذكور يتخذون مثلهم العليا من الذكور ، والإناث من الإناث . ولكن هناك استثناءات بهذا الصدد . فبعض الذكور يميلون إلى الأنوثة ، كما تميل بعض

Looloo
www.dvd4arab.com

الإناث إلى الذكورة ، وقد يكون سبب ذلك بنْيويًا متعلقًا بالهورمونات الذكرية والأنثوية وما تتصف به من تفاوت فى مقاديرها التى تفرزها الغدد التناسلية فى الدم ، كما قد يكون السبب مكتسبًا من البيئة المحيطة بالمرء والتى شرَّبته مُثُلاً عليا مباينة لجنسه منذ طفولته . ففى تلك الحالات يتخذ المرء مثله الأعلى المعاصر من بين أفراد الجنس المقابل لجنسه .

رابعًا ــ الفئة الاقتصادية : فالمثل الأعلى الذى يتوخاه المرء وينحو إليه للتشبه به والضرب فى الخطوات نفسها التى ضرب فيها ، يكون فى الغالب شخصًا من الطبقة الاجتماعية التى نشأ فيها ، ولكنه يكون قد استطاع أن يثبت تفوقه اقتصاديًا ، وأن يشق طريقه نحو الثراء بعد أن كان واحدًا من الطبقة الفقيرة . أما إذا كان المرء من الطبقة الثرية ، فإن مثله الأعلى يتعلق بالشخصيات المعاصرة الأكثر ثراء من طبقته ، أو تلك التى تنعم فى حياتها وتحظى بقدر أكبر من الرفاهية التى استطاع الحصول عليها .

خامسًا ــ الفئة الثقافية : ولقد يكون المثل الأعلى المرتجى الذى يتمنى المرء تحقيقه فى شخصيته مثلاً أعلى ثقافيًا . فالطفل والمراهق والشاب يتخذون من زملائهم المتفوقين دراسيًا ، أو المتمتعين بالذكاء والثقافة العامة ، مُثُلاً عليا لهم يبغون تقليدها ومشابهتها فى النبوغ والذكاء .

المثل العليا التخيلية :

قد لا تكون المثل العليا التى يترسَّمها المرء ويضعها نصب عينيه ، مثلاً عليا مستمدة من شخصيات تاريخية أو من شخصيات معاصرة ، بل تكون عبارة عن مركَّبات ذهنية مستمدة من العديد من الشخصيات

الواقعية ، سواء أكانت شخصيات تاريخية ، أم شخصيات معاصرة ، سواء كانت شخصيات اتصل بها المرء اتصالاً مباشرًا ، أم اتصل بها من طرف واحد ، وذلك بأن شاهد صورًا لها ، أم سمع صوتها ، أم قرأ أخبارها على صفحات الجرائد والمجلات ، أم أنه يكون قد أضاف عناصر من عنده إلى تلك المقوّمات التى استفادها من الواقع الخارجى .

وعلى أية حال فإن المثل العليا التخيلية تتصف بمجموعة من الصفات التى نستطيع تقديمها على النحو التالى :

أولاً ــ القوام التركيبى للمثل الأعلى التخيُّلى : فالمثل الأعلى التخيلى ليس مزيجًا من عدد كبير أو قليل من العناصر المستفادة من الشخصيات التاريخية أو المعاصرة ، بل إن ما استفاده المرء من الواقع الخارجى القريب أو البعيد ، لا يعدو أن يكون مجرد عناصر يُجْرى عليها المرء بخياله تلك العمليات التفاعلية التركيبية التى تشبه التفاعلات أو التركيبات الكيميائية . وبذا فإن المثل الأعلى التخيلى لا يكون متصفًا بالتهلهل أو بالتناقض فيما بين مقوماته ، بل يكون كلاً مركَّبًا ، ومتصفًا بالوحدة والتجانس .

ثانيًا ــ استمرارية التفاعلات التراكبية : وهذا المثل الأعلى التخيلى الذى يتأتى عن تلك التفاعلات الخبرية التراكبية ، لا يظل على حالة واحدة ، ولا ينتهى عند مرحلة تفاعلية لا يتعداها ، بل يستمر فى التفاعل التراكبى ، فيتأتى عن ذلك زيادة تراكبيته . وبتعبير آخر ؛ فإن المثل الأعلى التخيلى يتطور مع تطور الشخص الذى يتوخاه ، وذلك بفضل استمراره فى التفاعلات الخبْرية التراكبية . فهو يماشى الحاجات المتطورة والمتزايدة التى تتطلبها مسيرة صاحب ذلك المثل الأعلى عن طريق انخراطه فى التفاعلات الخبْرية المستمرة والدائبة .

www.dvd4arab.com

ثالثًا ـ التأثير المتبادل بين المرء وبين مثله الأعلى التخيلى : فكما أن ذهن المرء يمد مثله الأعلى التخيلى بالمقومات الذهنية الخبْرية التى يتفاعل معها فيزداد تراكبًا ، كذا فإن ذلك المثل الأعلى الذى تأتّى عن تلك التفاعلات الخبْرية التراكبية يؤثر تأثيرًا بعيد المدى فى شخصية المرء واتجاهاته .

رابعًا ـ تحطُّم المثل الأعلى التخيلى : بيد أنه على الرغم من أن المثل الأعلى التخيلى يكون قد تأتّى للمرء نتيجة الانخراط فى مجموعة كبيرة من التفاعلات الخبْرية التراكبية ؛ فإنه قد يتعرض للتحطُّم فى بعض الحالات ، من أهمها تلك الصدمات التى يتلقاها المرء فى الواقع الحياتى الخارجى ، وما يحيق به من فشل فى مساعيه ، ومقارنته بين ما تردَّى فيه من فشل ، وبين ما لقيه الآخرون من نجاح . فهو فى هذه الحالة يتهم مثله الأعلى التخيلى بالزيف ، فيوجه إليه سهام النقد باستمرار ويرذله ويحاول أن يتخلَّص منه . وبرغم أن ذلك المثل الأعلى يكون صُلْب العود نسبيًا ، فإن توجيه معاول النقد إليه يهزمه فى نهاية المطاف ، ويعمل على انهياره وتحطم مقوماته . ولقد يكون لذلك التحطُّم نتائج وخيمة فى حياة المرء وفى مدى قدرته على استمرار مسعاه ، فيركن إلى الكسل ، أو ينخرط فى المرض النفسى ، أو يحاول القضاء على حياته بالانتحار .

خامسًا ـ المثل العليا فارغة المضمون : ولقد يكون المثل الأعلى الذى ينشئه المرء فى قوامه الذهنى التخيلى غير مرتبط بالواقع ، أو لا يكون صالحًا للتأثير إيجابيًا فى حياته . ومن ثم فإنه يكون مثلاً أعلى لا يتعدى نطاقه الذهنى . فهو يأنس إليه فى أحلام يقظته ، ولكنه لا يحاول حمله على التأثير فى حياته الواقعية ، أو فى علاقاته بالآخرين .

المثل العليا الأخلاقية :

ليس شرطًا أن يكون المثل الأعلى مُشَخَّصًا فى هيئة شخص يتخذه المرء نموذجًا له يحتذيه ، ويرغب فى مطابقة سلوكه مع سلوكه . فمن الممكن أن يكون المثل الأعلى نمطًا معينًا من السلوك يرغب المرء فى تحقيقه فى شخصيته . ولعلنا نقوم فيما يلى بإلقاء الضوء على أنواع السلوك الأخلاقى التى يمكن أن تكون مثلاً أعلى على النحو التالى :

أولاً ـ الصدق دائمًا : فالشخص الذى يتخذ من الصدق مثلاً أعلى فى حياته وفى علاقاته بالآخرين ، يحاول بصفة دائمة تحقيق التطابق بين الكلام المنطوق وبين الأحداث التى وقعت ، أو التى تقع فى أثناء تعبيره بالكلام المنطوق ، أو تلك التى سوف تقع فى المستقبل . فالصدق يتمثل فى تلك المطابقة بين الكلام وبين الواقع الحادث بالفعل . ولكن من الممكن أن يتفلسف المرء بإزاء معنى الصدق والكذب ، فيذهب إلى أن هناك نوعين من الصدق ، ونوعين من الكذب . فثمة الصدق اللفظى من جهة ، والصدق السلوكى من جهة أخرى . وكذا فإن هناك كذبًا لفظيًا وكذبًا سلوكيًا . والصدق السلوكى هو ذلك الكلام الذى يكون صاحبه قد أخذ فى تناول الموقف بالتأمل والاستقصاء ، فيقف على النتائج التى تتأتى نتيجة ما يقال ، فينطق بما يعبر عن المناسب للمقام ، بينما يحجب ما لا يصح النطق به أو التعبير عنه . أما الكذب السلوكى فهو التعبير عن معان أو عن نيات تتأتى عنها نتائج رديئة أو نتائج غير مناسبة . وعلى هذا فإن الصدق اللفظى قد يكون فى الوقت نفسه كذبًا سلوكيًا ، كما أن الكذب اللفظى قد يكون فى الوقت نفسه صدقًا سلوكيًا . فالنميمة قد تكون صدقًا لفظيًا لأن ما يلوكه الشخص النمّام من كلام ، يكون مطابقًا للواقع الذى حدث أو يحدث أو سيحدث . ولكن النميمة شر أكيد .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثانيًا ـ الحرص على الوقت واستثماره : ومن المثل العليا الأخلاقية الحفاظ على كل دقيقة من وقت العمل بحيث لا يضيع الوقت سُدى وفى تبطُّل أو فى السخافات أو فى الأنشطة الضارة بالمرء أو بالآخرين . والواقع أن الشخصيات العظيمة لا تحرص على الوقت نتيجة ازدحامها بالمهام التى تحملها على عاتقها ، بل إن عظمتها تتبدى فى حفاظها على الوقت كمبدأ تلتزم به ، أو كمثل أعلى تتوخى تحقيقه بصفة دائمة . فهى كلما أضاعت بعض الوقت سُدى ، فإنها تحس بوخز مؤلم فى الضمير ، وذلك لأنها خرجت عن نطاق مثلها الأعلى ، أو لأنها خانت المبدأ الذى اعتنقته وحرصت على الالتزام به .

ثالثًا ـ الحرص على تحقيق الذات : ولقد يكون المثل الأعلى الذى يلتزم به المرء ، هو الجهاد المستمر لتحقيق الذات ، بمعنى استثمار الاستعدادات والمواهب الدفينة التى لا يتسع العمر ـ مهما طال ـ لاستثمارها كلها . ولكن من الممكن بالطبع ، استثمار أكبر قدر من تلك الاستعدادات والمواهب المطمورة على أفضل وجه ممكن . وهذا الاستثمار للاستعدادات والمواهب يعنى تحقيق التفاعلات الخبرية المكينة بين ما يتلقاه المرء من خارجيته من خبرات ، وبين تلك الاستعدادات أو المواهب المطمورة بدخيلته ، ثم التعبير عما يتم إنتاجه من نتائج خبْرية بوسيلة أو بأخرى . والمقتفى لهذا المثل الأعلى يهمه بالدرجة الأولى أن يكون تعبيره عن المركَّبات الخبرية التى تأتت له بطريقته الخاصة التى تجسد ذاتيته . وبتعبير آخر فإن ما يهم المؤمن بهذا المثل الأعلى أن تكون له بصمة خاصة فى الحياة ، فيترك أثره فيما يمارسه من أنشطة ، أيًا كانت تلك الأنشطة .

المثل العليا الثقافية :

وعلى النحو نفسه ، نجد المثل العليا الثقافية . والثقافة هى جميع المكتسبات الخبْرية العقلية والوجدانية والتذوقية والأدائية والعلائقية استقبالاً وتصديرًا . فالثقافة الحقيقية ليست استقبالاً فحسب ، بل هى استقبال وتصدير ، حتى يتسنى وصف ثقافة المرء بالتكامل . ويخطئ من يحصر معنى الثقافة فى الجانب المعرفى ، فيستبعد القيم الدينية والأخلاقية والفنون الجمالية والفنون الأدائية والممارسات الاجتماعية من نطاقها . فالثقافة تتضمن الأدب والفلسفة والعلوم الوضعية ، كما تتضمن أيضًا المهارات اليدوية المختلفة ، وفنيات الأداء ، واستخدام التكنولوجيات المختلفة ، وأيضًا المهارات المتعلقة باللقاءات الفردية والجماعية .

بيد أن المستويات الثقافية التى يتميز بها شخص عن آخر ، تتبدى فى ضوء مجموعةٍ من الزوايا التى نستطيع تقديمها على النحو التالى :

أولاً ـ الزاوية الإبداعية : فكلما كانت المساهمات الثقافية فى أى مجال من المجالات التى ذكرناها متَّصفة بالإبداع ، أى أنها تكون غير مسبوقة ، وأن تكون معبِّرة عن مركَّب خبْرى أصيل نتج عن التفاعلات الخبْرية التى حدثت فى قوام المرء ؛ فإنه يكون بذلك على جانب رفيع من الثقافة . بيد أن الإبداع ليس جميعه على مستوى واحد ، بل ثمة إبداعات عظيمة للغاية ترتفع فى مستواها عن كثير من الإبداعات الأخرى فى المجال الواحد .

ثانيًا ـ الفائدة العملية للثقافة : فعلى الرغم من أن الثقافة فى بعض جوانبها يجب ألا تقاس بمعيار الفائدة ، فإن ثمة جوانب ثقافية يجب أن تقدَّر فى ضوء مدى الفائدة التى تتأتى عنها . فالثقافة الأدائية

Looloo
www.dvd4arab.com

التى تتعلق بصناعة الطرابيش مثلاً ، لم تعد ذات قيمة بعد أن أقلع الناس عن ارتدائها . ولكن اللوحة الفنية الجميلة ، أو اللحن الأصيل برغم أنه لا يحمل فائدة عملية مباشرة ، فإن قيمته الفنية تكون قيمة ذاتية وليست قيمة عملية .

ثالثًا ــ التطور الثقافى : أخيرًا فإن ثقافة الشخص المثقف تقاس فى ضوء مدى ما يحرزه من تطور ثقافى مستمر . فمن يتوقف عن النمو الثقافى ، وبالتالى عن التفاعل الثقافى ، يضحى أقل قيمة من الشخص الذى يستمر فى نموه الثقافى ، وفى تفاعلاته الخبْرية التى تتأتى عنها مركّبات أو نتاجات ثقافية مستمرة فى التطور والتقدم .

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر
العاطفة والقيم الدينية

الاعتكاف رياضة القلب :

من الخطأ أن نقول : إن الإنسان اجتماعى بالطبع فحسب ، أو نقول : إن الإنسان فردى بالطبع فحسب . والصحيح أن نقول : إن الإنسان اجتماعى من جهة ، وفردى من جهة أخرى . والواقع أن الإنسان الذى يقتصر على الانخراط فى الواقع الخارجى المتمثل فى البيئة الاجتماعية ، يعمل على إطفاء فرديته والقضاء عليها ، وبالتالى فإنه يفقد قدرته على التأمل الذاتى ، أعنى القدرة على الاعتكاف .

وعلى الرغم من أن التدين يتخذ له طريقين : أحدهما الطريق الجمعى ، والآخر الطريق الفردى ، فإن الواقع أن الطريق الجمعى موصّل إلى الطريق الفردى ، أو بتعبير آخر فإن المرء وهو فى نطاق جماعة من المصلين فى مسجد أو كنيسة ، إنما يكون فرديًا ، بمعنى أن صلته الروحية تكون بينه شخصيًا وبين ربه . وكذا فإن المرء فى حالة الاعتكاف لا يكون قد قطع صلته بالناس ، بل إنه يتخذ من اعتكافه وتأملاته الباطنية الشخصية ، وسيلة للتطلع بنقاء إلى الناس . فهو يسلّح نفسه فى اعتكافه بالوسائل التى تجعله يتعامل مع الناس بطريقة أفضل . فعلى الرغم من أن التقرب من العرش الإلهى غاية فى ذاتها ، فإن ذلك لا يحول دون القول : إن ذلك التقرب يُضفى على المرء مسْحة ونورًا يجعلانه أكثر جدارة للتعامل مع الناس بطريقة أفضل ، وبحب أعمق ، وبحكمة أوفر .

Looloo
www.dvd4arab.com

وعلينا أن نلقى الضوء على الدور الذى تلعبه العاطفة فى الاعتكاف ، فنجد أن ذلك الدور يتحدد على النحو التالى .

أولاً ـ النقد الذاتى : فمن الحقائق المعروفة أن هناك نوعين من التربية التى تؤثر فى سلوك المرء وفى قوام شخصيته : تربية يمارسها الآخرون بإزاء المرء ، وتربية أخرى يمارسها المرء بإزاء نفسه . وهذا النوع الثانى من التربية هو ما يسمى بالتربية الذاتية . والواقع أن هذا النوع الذاتى من التربية يتأتى للمرء بالاعتكاف وبإلقاء الضوء على ذاتيته ؛ لا لاكتشاف الأخطاء والاعوجاجات السلوكية التى لصقت بشخصيته فحسب ، بل لاكتشاف الجوانب الطيبة من شخصيته أيضًا . فهو يقتلع بالنقد الذاتى أخطاءه السلوكية ، بينما يثبت دعائم المقومات الطيبة التى اكتسبتها شخصيته ويعمل على التطور بها وتفريخها . ولاشك أن هذين الجانبين يكملان بعضهما بعضًا . فلا يكفى أن يقتلع المرء ألوان السلوك الرديئة من قوام شخصيته ، بل يجب عليه أن يزرع أيضًا الجوانب الجيدة فيها .

ثانيًا ـ التركيز على خصيصة معينة : وفى الاعتكاف يختار المرء خصيصة بالذات من الخصائص التى يرغب فى التطور بها فى قوام شخصيته ، وتثبيت أركانها فى سلوكه ، وفى علاقاته بنفسه وبالآخرين . فمثلاً قد يقع اختياره على مبدأ التسامح كموضوع لتأمله ، ويأخذ فى سبر أغواره لا كموضوع بحثى ، بل لتشربه فى قوامه شخصيًا ، ولعله يسائل نفسه فى هذا الموقف : هل أنا شخص متسامح ؟ هل أتقبل الناس كما هم ؟ أم أنى أفرض عليهم أنماطًا سلوكية معينة ؟ هل أنا شخصية منتقمة ممن أساءوا إلَّى ؟ هل أحس بالنشوة عندما تقع المصائب على الأشخاص الذين يُبْدون لى الكراهية أو يناصبوننى العداء ؟ هل أقدم المساعدة لمن يحتاج إليها بغض النظر عن مشاعره

تجاهى ؟ إلى آخر تلك التساؤلات التى يديرها المرء بينه وبين نفسه بإزاء مبدأ التسامح .

وطبيعى أن هذه التساؤلات وغيرها ليست مجرد تساؤلات تقريرية للكشف عن الحقائق ، بل إنها أدوات لتحسين السلوك ، والتخلص من المُعْوج فيه ، وإحلال أدوات طيبة محلها .

ثالثًا ـ الكشف عن المواهب المخبوءة : فمن طريق التأمل الباطنى خلال الاعتكاف ، يتسنى للمرء أن يكتشف قدرات روحية جديدة لديه ، من الممكن استغلالها واستثمارها فى الحياة . فلقد يكتشف أسلوبًا جديدًا ينظِّم به حياته الروحية ، أو قد يكتشف أن بمقدوره أن يُحِل أسلوبًا روحيًا جديدًا محل الأسلوب الذى ينتهجه ويضرب فى إثره .

العاطفة خادمة التقوى :

ومما لاشك فيه أن الوسيلة التى تستخدم لدعم التقوى فى قلب المرء ، تتمثل فى العاطفة . ذلك أن العاطفة ـ كما سبق أن قلنا ـ هى تبلور الطاقة الوجدانية حول محور معين . فمن يتعشق المال ومتاع الدنيا ، يكون قد بلْور وجدانه حولهما . ومن يتعشق العلم والفلسفة ، يكون قد بلْور طاقته الوجدانية حولهما . كذلك فإن من يتعشق الروحيات يبلور طاقته الوجدانية حولها . ولعلنا نقوم بإلقاء الضوء على الدور الذى تلعبه العاطفة فى خدمة الروحيات على النحو التالى :

أولاً ـ الندم على نقائص الماضى : فالعاطفة التى تعتمل فى قلب الشخص التقى ، تحثه على أن يتحسَّر على ما فاته خلال ماضيه من لذائذ روحية يستشعرها حاليًا ، بعد أن ذاق حلاوتها ، والواقع أن من

Looloo
www.dvd4arab.com

يتصفح حياة الأتقياء ، يجد أنهم يستشعرون الندم على تقصيرهم خلال مراحل عمرهم الماضية التى لم يستغلوها الاستغلال السليم لخدمة حياتهم الروحية . وشأنهم فى الواقع كشأن الفيلسوف أو العالم الذى يندم على أنه لم يستغل مراحل حياته بدءًا من الطفولة فى الاطلاع واستقصاء ما كان بمقدوره الاطلاع عليه واستقصاؤه من فلسفة أو علم . فلو انه كان قد استثمر وقته منذ طفولته على الوجه الأكمل وكما كان ينبغى ، لكان بمقدوره إذن أن يكون أكثر عمقًا ، وأنصع بصيرة فى المجال الفلسفى أو العلمى الذى يوجه همه إليه .

ثانيًا ـ التركيز الذهنى العاطفى : والمرء الذى يستخدم عاطفته فى سبيل التقوى ، يحاول جاهدًا أن يركز ذهنه وعاطفته فى الأمور الروحية ، فتحتل تلك الأمور من اهتمامه مكان الصدارة ، وبتعبير آخر فإنه ينحو إلى التكريس الروحى بأقصى ما لديه من طاقة لخدمة وتوظيف إمكاناته لتحقيق الأهداف الروحية السامية ، وللارتفاع بمستواه الروحى إلى أعلى عليين .

ثالثًا ـ اتخاذ الخطوات العملية : ويترتب على التوظيف الروحى للعاطفة لخدمة التقوى ، الشعور بعدم التعلق بأثواب الدنيا ومفاخرها . ومن هنا فإن الشخص الذى يقوم بتوظيف عاطفته فى سبيل التقوى . يقدم الكثير مما تمتلكه يداه للمحتاجين إلى تلك الأشياء. فإلى جانب شعوره بحاجة الفقراء إلى ما بين يديه ، فإنه يحس أيضًا بأن تلك الأشياء التى يقدمها لهم لا تساوى شيئًا إذا ما قيست باللذة الروحية التى يحس بها عندما يضفى عليهم السعادة ، ويرسم على شفاههم البسمة والرضا .

ثمرة التقوى حب خالص :

والواقع أن الشخص الذى يرتفع فى معارج التقوى ، ينظر إلى الوجود من حوله بما يضمه من جماد وحيوان وإنسان ، بنظرة مباينة للنظرة التى ينظر بها الشخص الذى لاحظّ له من التقوى . فهو يحس بالتقارب الشديد بينه وبين الوجود . فبينما ينظر الشخص غير التقى إلى الوجود بنظرة عدائية ، فينقضّ عليه إذا ما استطاع إلى ذلك الانقضاض سبيلاً . فإن الشخص التقى ينظر إليه بنظرة حب ، فيرى فيه مالا يراه غيره فيه من جمال وجاذبية . فنظرته إلى الوجود شبيهة بنظرة الفنان إلى الأشياء . فالفنان عندما يتطلع إلى السماء حيث القمر والنجوم ، فإنه يحس بالنشوة والحب يملآن جنبات قلبه ، بل إن ذلك الحب قد يدفعه تلقائيًا إلى الابتهال والصلاة . والفنان عندما يتأمل الزهرة ، فإنه يتعشق ما يتجلى فيها من روعة وجاذبية . كذلك يشترك الشخص التقى مع الفنان فى أحاسيسه المرهفة . فهو يرى فى الوجود الحق والخير والجمال مجتمعة ومتجسدة فيما تقع عليه عيناه .

وحيث إن هذا هو حال الشخص التقى بإزاء الوجود بشكل عام ، فإنه أيضًا حاله تجاه الإنسان . فهو يحس تجاهه بالحب العميق ، بل إنه يحب الإنسانية فى جميع أشكالها وألوانها . وأكثر من هذا فإنه يشفق على الإنسان الذى انحرف إلى طريق الشر ، ويترجم التواءاته السلوكية فى ضوء ما أصابه من ضعف وعمَاء عن طريق الخير نتيجة ما ران على عينيه من غشاوة . فلولا تلك الغشاوة لما كان شريرًا . فالطبيعة البشرية فى جوهرها نقية نقاء تامًا ؛ لولا ما قد تتلطخ به من شر وانحراف عن الجادة السوية .

Looloo
www.dvd4arab.com

بالعاطفة تتوهج حرارة الإيمان :

الواقع أن الإيمان مباين للاقتناع . فالإيمان مُركّب نفسى من العقل والعاطفة شبيه بالمركّب الكيميائى ، وتكون العاطفة هى العنصر الغالب فى قوام ذلك المركب النفسى . ومن الخطأ أن ينظر إلى الإيمان باعتباره عاطفة فحسب ، أو باعتباره عقلاً فحسب .

ومن هنا فإن العاطفة تلعب دورًا أساسيًا فى تكوين الإيمان ، وفى دعمه فى القوام العقلى الوجدانى لدى المرء . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض الوظائف التى تضطلع بها العاطفة بإزاء الإيمان :

أولاً ـ تحقيق التكامل النفسى : فالواقع أن الشخصية المتكاملة هى تلك الشخصية التى استطاعت أن تحقق التوازن فيما تصل إليه من مركب نفسى بين العاطفة والعقل يعتمل فى حياتها الداخلية ، وفى تصرفاتها الخارجية . أما إذا تسلط العقل على ذلك المركّب النفسى بشخصية المرء وأخذ بزمامها ، أو إذا سيطرت العاطفة عليه وأخذت بزمامها ، فإن المرء لا يكون فى هذه الحالة متكامل الشخصية . وحتى بالنسبة لأكثر العلماء والفلاسفة انصرافًا إلى الشئون العقلية ، فإنهم يحسون بضرورة تحقيق التوازن فى شخصياتهم بما ينتحون إليه من تذوق للفن وللأدب . فإذا ما استطاع المرء أن يحقق هذا المركّب الوجدانى العقلى المتعادل المتمثل فى الإيمان ، فإنه يكون بذلك قد احتل قمة التكامل النفسى ، وضرب فى الطريق الروحى بسهم وافر .

ثانيًا ـ وضوح الرؤية فى الحياة : والعاطفة التى تتفاعل مع العقل ، تشيع الطمأنينة فى القلب ، فلا يرى المرء متناقضات الحياة المتصارعة، بل يرى الوجود من حوله فى سلام وانسجام . فحتى إذا كان الواقع من

حوله مفعمًا بالصخب والتشاحن والتطاحن ، فإن النظرة الداخلية المفعمة بالإيمان المتوهج ، تحمله على مشاهدة الواقع بنظرة ملؤها الثقة والهدوء .

ثالثًا ـ النظرة المستقبلية : وتوّهج الإيمان بفضل العاطفة ، يُشع نورًا يضيء طريق المستقبل . ومعنى هذا أن الشخص المؤمن يرمى ببصره إلى المستقبل ، فيرى فيه البركات التى تنتظره ، والآمال العريضة التى تستقبله فى مستقبل أيامه بالأحضان . وأكثر من هذا فإنه يرى أن الأبدية استمرار للحياة الحالية التى تعتبر مجرد مَعْبر يمر عليه المرء إلى الأبدية والخلود .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقـدمة	٣
الفصل الأول : معنى العاطفة :	
ـ المعنى الانبثاقى	٥
ـ المعنى التعلقى	٧
ـ المعنى الوظيفى	٨
ـ المعنى العلائقى	٩
ـ المعنى اللاشعورى	١٠
الفصل الثانى : موضوعات العاطفة :	
ـ الموجودات الحسية	١٢
ـ اللّه وملائكته	١٤
ـ المبادئ الأخلاقية	١٧
ـ الوطـن	١٩
ـ الثقـافة	٢٠
الفصل الثالث : مثيرات العاطفة :	
ـ تهديد الأمن	٢٣
ـ الأحداث المفاجئة	٢٥
ـ موت شخص عزيز	٢٧
ـ فقد أشياء ثمينة	٢٩
ـ التناغم الوجدانى	٣١

الفصل الرابع : التوهُّج العاطفى :	
ـ العوامل الوراثية	٣٣
ـ العوامل النفسية	٣٥
ـ العوامل الاجتماعية	٣٧
ـ العوامل الاقتصادية	٣٩
ـ العوامل السياسية	٤٠
الفصل الخامس : البرود العاطفى :	
ـ نقص التبلّور الوجدانى	٤٣
ـ ضعف الذاكرة	٤٥
ـ الكبت اللاشعورى	٤٧
ـ التمركز حول الذات	٤٩
ـ الشعور بالدونية	٥١
الفصل السادس : التقلب العاطفى :	
ـ التقلب بين الحب والكراهية	٥٣
ـ التقلب بين التفاؤل والتشاؤم	٥٥
ـ الانقلاب من الحماس إلى الفتور	٥٧
ـ التقلب بين التضحية والأنانية	٥٩
ـ التقلب بين التديُّن والفجور	٦١

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السابع : انطفاء العاطفة :

- الخيانة الزوجية ٦٤
- الانحرافات الأخلاقية ٦٦
- تضارب المصالح ٦٨
- انقطاع الصلة ٦٩
- انطفاء الانتماءات ٧١

الفصل الثامن : العقل والعاطفة :

- هل العقل والعاطفة متكاملان ؟ ٧٤
- القوام المحايد ٧٧
- انبثاق العقل من العاطفة ٧٩
- تأثير العقل فى العاطفة ٨٠
- تأثير العاطفة فى العقل ٨٢

الفصل التاسع : وظائف العاطفة :

- الوظيفة التجميعية ٨٤
- الوظيفة الدفاعية ٨٧
- الوظيفة التذوقية ٨٩
- الوظيفة المستقبلية ٩١
- الوظيفة الثقافية ٩٣

الفصل العاشر : العاطفة والمشاركة الوجدانية :

- التفسير بالإحلال ٩٤
- التفسير بالتقمص ٩٦
- التفسير بالاندماج ٩٨
- التفسير بالتناغم ٩٩
- التفسير بالموقف ١٠١

الفصل الحادى عشر : اللاشعور والعاطفة :

- اللاشعور فى مقابل الذاكرة ١٠٤
- تكاملية الشعور واللاشعور ١٠٦
- استقطابية اللاشعور ١٠٨
- اللاشعور بين الاستيراد والتصدير ١١٠
- دينامية اللاشعور ١١٢

الفصل الثانى عشر : العاطفة والصحة النفسية :

- عاطفة الحب ١١٤
- عاطفة اعتبار الذات ١١٦
- عاطفة تقدير الآخرين ١١٨
- عاطفة الانتماء ١٢٠
- عاطفة التمسك بالقيم ١٢٢

Looloo
www.dvd4arab.com

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثالث عشر: العاطفة والتوافق الاجتماعى:	
ـ العاطفة والأسرة	١٢٥
ـ العاطفة والأصدقاء	١٢٧
ـ العاطفة والجيران	١٢٩
ـ العاطفة فى مجال العمل	١٣١
ـ العاطفة فى الحياة العامة	١٣٣
الفصل الرابع عشر : العاطفة والمثل العليا :	
ـ المثل العليا التاريخية	١٣٦
ـ المثل العليا المعاصرة	١٣٩
ـ المثل العليا التخيلية	١٤٠
ـ المثل العليا الأخلاقية	١٤٣
ـ المثل العليا الثقافية	١٤٥
الفصل الخامس عشر : العاطفة والقيم الدينية :	
ـ الاعتكاف رياضة القلب	١٤٧
ـ العاطفة خادمة التقوى	١٤٩
ـ ثمرة التقوى حب خالص	١٥١
ـ بالعاطفة تتوهج حرارة الإيمان	١٥٢

أدبيـــات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ورواية ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغـة ، وعلـوم ، وتـراث ، ولغـات ، وقضايـا وتـاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

١ ـ الإنسان الباهت ..... طيبة أحمد الإبراهيمى
٢ ـ الإنسان المتعدد ..... طيبة أحمد الإبراهيمى
٣ ـ انقراض الرجل ..... طيبة أحمد الإبراهيمى
٤ ـ الحياة مرة أخرى ..... نوال مصطفى
٥ ـ نوم العازب ..... محمد حسن الألفى
٦ ـ الإعلام والمخدرات ..... د . نوال عمر
٧ ـ من شرفات التاريخ ، جـ١ ..... د . محمد رجب البيومى
٨ ـ فكر وفن وذكريات ..... لوسى يعقوب
٩ ـ أم كلثوم ..... مجدى سلامة
١٠ ـ المرأة العاملة ..... سوزان عبد المجيد أغا
١١ ـ ساعة الحظ ..... محمد حسن الألفى
١٢ ـ من شرفات التاريخ ، جـ٢ ..... د . محمد رجب البيومى
١٣ ـ الملامح الخفية (جبران ومىّ) ..... لوسى يعقوب
١٤ ـ شعرة معاوية وملك بنى أمية ..... عرفات القصبى قارون
١٥ ـ عبد الحليم حافظ ..... مجدى سلامة
١٦ ـ محمد عبد الوهاب ..... مجدى سلامة
١٧ ـ الشخصية السوية ..... يوسف ميخائيل أسعد
١٨ ـ الشخصية المتطورة ..... يوسف ميخائيل أسعد
١٩ ـ الشخصية القيادية ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢٠ ـ الشخصية المبدعة ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢١ ـ سيكولوجية الهدوء النفسى ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢٢ ـ قادة الفكر الفلسفى ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢٣ ـ سيكولوجية الفكر ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢٤ ـ سيكولوجية العاطفة ..... يوسف ميخائيل أسعد
٢٥ ـ سيكولوجية الإرادة ..... يوسف ميخائيل أسعد

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

سيكولوجية العاطفة

يوسف ميخائيل أسعد

هذا الكتاب يتناول جانبًا هامًا للغاية من جوانب الشخصية الإنسانية . وهو رغم صغر حجمه ، فإنه يعرض لخمسة وسبعين موضوعًا تندرج تحت فصوله الخمسة عشر . وهو يناقش مناحيَ غير مسبوقة فيما يتعلق بالشخصية . ولك أن تتصفح الفهرس لتقف على الآفاق العديدة التى حاول المؤلف سَبْر أغوارها بفكر إبداعى متفاعل بين المعرفة والخبرة .

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨١٥٥ - ٢٨٣٥٥٤٠ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٤٨